دراسات فى

التصوف الإسلامى

ظلاله فى الأدب العربى

دراسات فى الأدب الصوفى نثرا وشعرا

تأليف

محمد عبد المنعم خفاجى

الناشر

مكتبة القاهرة

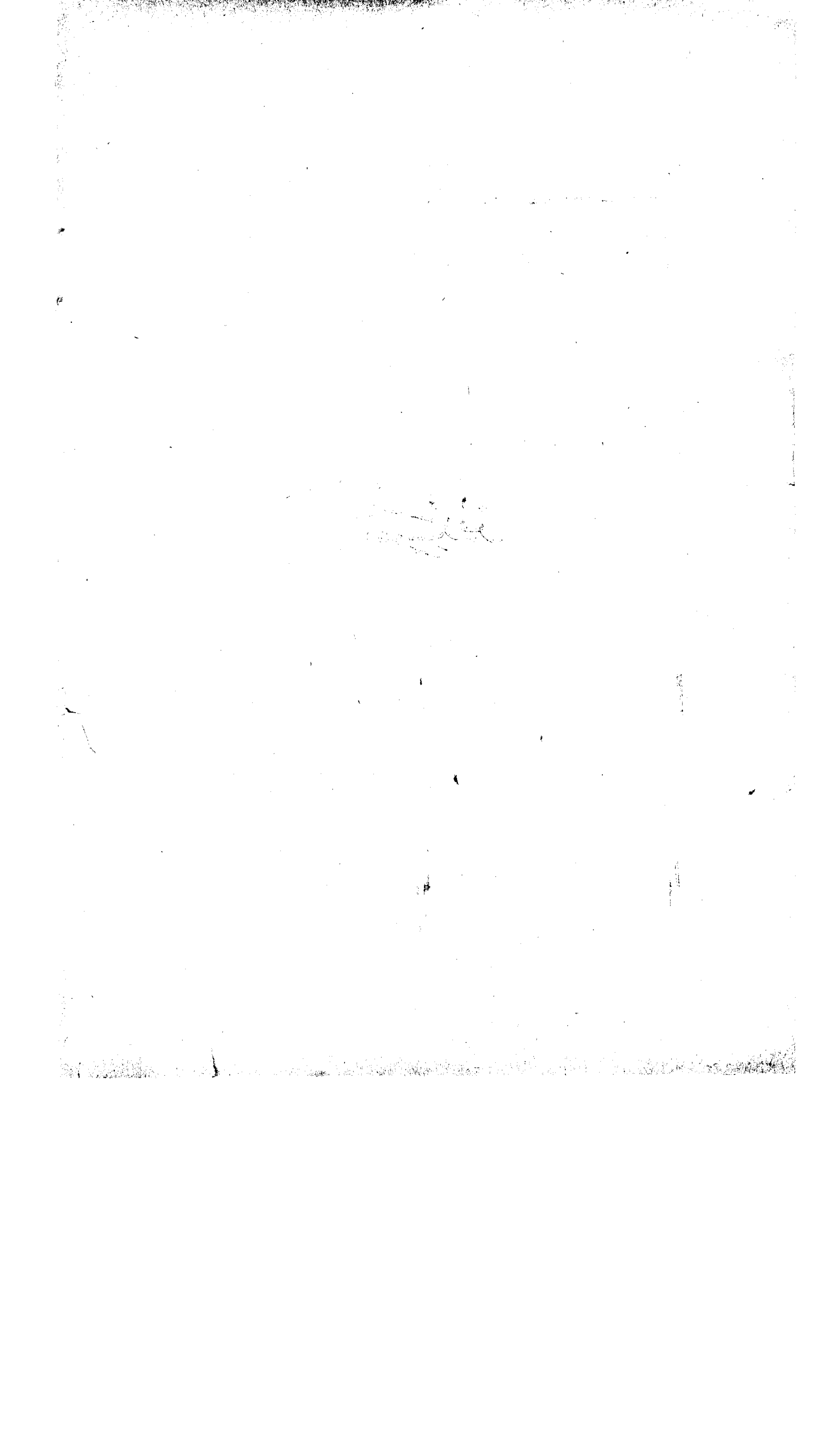
لصاحبها على يوسف سليمان

شارع الصنادقية بميدان الأزهر بمصر

دار الطباعة المحمدية

بالأزهر بالقاهرة

تصدير



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

التصوف فى عصر العلم

— ١ —

هل من حاجة إلى التصوف فى عصر العلم؟ العصر الذى ارتفع العقل الإنسانى فيه بالناس إلى الفضاء، وكشف أسرار الذرة، وحاول كشف الكواكب.

وهل يعنى التصوف جديدا فى هذا الزحام المادى الشديد، وذلك التطور الحضارى المذهل للعقول؟

أقول: إنه كلما ازدهرت الحضارة، وتألقت المدنية، وازداد الرخاء المادى فى المجتمعات؛ أصاب الناس سعار الذهب والفضة، وأصبحت حياتهم مقومة بموازين مادية خالصة، وتكدست الأموال فى أيد، وحرمت منها أياد كثيرة، لا يستطيع أصحابها السير فى الزحام، ولا يهتدون لوسائل الربح فى السوق ولا تستطيع عقولهم السباق فى المعركة؛ وكذلك عندما تزدهر الحضارة تشتد أحداث الحياة، وتقسو أهوالها على الناس. فهذا تاجر فشل فى تجارته، وذاك صاحب مصنع أتت النار على مصنعه، وتلك طائرة تهوى إلى الأرض، وتترك ركابها كالهشيم تذروه الرياح، ومن خلفهم زوجات وآباء وأمهات وأبناء، وتلك سفينة هوت إلى قاع المحيط وتركت بعض ركابها غرقى يصارعون الموج؛ وكذلك فى الحروب يشعر

الجندى بأنه سائر إلى المعركة وليس معه إلا الله ، وكم من جندى بترت ساقه أويده أو غير ذلك ؛ وفى فترات الرقى الحضارى تهبط الأخلاق ، وتضيع الموازين ، ويسقط الكثيرون صرعى لهذا الانحلال ؛ فهذا رجل خانته زوجه ، وذاك أب عقه على الهرم والفقر ابنه ، وذاك صديق كان على صديقه حربا عوانا . .

وفى كل محنة من محن الإنسان ، لايكون فى يده شىء ، إلا لجوؤه إلى السماء ، ولايبقى له أمل إلا عندما يلوذ برحاب القدس ، ويؤمن الإنسان حينئذ بأنه لولا إيمانه بالله لهلك ، وسقط صريعا فى المعركة .

« قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون،فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ، وتنسون ماتشركون »[1] .. « هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق (٢) » .

وفى تيارات هذه المحن لايكون هناك علاج للإنسان إلا العلاج الروحى وحده ، ولا يكون هناك طب إلا طب الأرواح ، ولايبقى له أمل إلا فى اتجاهه شطر الإله العظيم ، ويصبح للتصوف أثر فعال وسط هذه الأعاصير ، لأنه الذى يقدر على أن يخلق من الهزيمة النصر ، ومن اليأس الأمل ، ومن الشقاء سعادة ، ومن الذلة عزة ، ومن الفقر غنى ويسرا .

---

(١) سورة الأنعام .
(٢) سورة يونس .

وفى وسط الدعوات والمذاهب المادية والإلحادية الصرفة التى تهب علينا رياحها من الغرب كل وقت ، لا يكون لنا إلا أن نلوذ بالروحية ، ونعتصم بها ، وندعو إليها .

وفى خضم مبادىء الانحلال والتدهور يبقى التصوف والروحية مدرسة تكون الرجال ، وتحمى الأخلاق ، وترفع معنويات الإنسان ، وتربى فيه الشمم والإباء والعزة والعفة والرفعة والسمو والطهر .

وما قيمة الحياة إذا كانت كلها مادية صرفة ، ودورانا فى عجلة الحياة ، كأن الإنسان قد صار آلة من آلاتها ؟ بل ما قيمتها إذا سيطرت عليها القيم المادية الخالصة ، وضعفت هيمنة القوى الروحية على الناس ، وفقدوا التطلع إلى المثل العليا ؟ إن حياة المدنية الحاضرة فيها الكثير من عوامل انهيارها ، من الانهيار الخلقى والأدبى والروحى والعقلى ، ومن الايمان بالعلم التجريبى وحده ، مما أظلم الطريق أمام العقل الإنسانى ، وقاده إلى ظلمات كثيفة من الشك والإلحاد والتمادى فى الضلال ، « وإن الملأ الأعلى يتوارى عمن يصد منه » كما يقول بعض الباحثين (١) ، فأبعد الناس عن فهم الله هم الذين يعيشون فى ظلمات المادية ، يتخذونها دينا لهم ومذهبا فى التفكير والحياة .

نحن فى حاجة ماسة إلى التصوف ، ليعيد لنا المعرفة الروحية ، وليعيد اتصالنا بالسماء ، وليصنع لنا الطريق إلى المثل الإنسانية الرفيعة ، وليجعلنا قادرين على فهم جوهر الدين وحقيقته كما أراده الله ، وصدق الله العظيم : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق » .

المجتمع اليوم فى حاجة إلى التصوف ومبادئه المثلى للتخفيف من ويلات الحياة ، والقضاء على قسوة المجتمع ، وبعث الرضا الروحى فى نفس كل محروم أو منكوب أو ذى « عقدة نفسية » كما يقولون .

---

(١) محمد غلاب — منبر الإسلام جمادى الأولى ١٣٨٦ هـ .

ولقد كان التصوف منذ القديم طب الأرواح ، فكم من إنسان أرقته الحياة على شفا هوة الغرق والمحنة والألم ، فقاده التصوف إلى الأمن والأمان والسلام والطموح والمجد . وكم من إنسان نكب أقسى نكبة يطير لها فؤاد الإنسان ، فأحال التصوف قلبه المملوء بالنار برداً وسلاماً .

إن تعلق الإنسان بالله وحده لما يرفع من معنوية الإنسان فى الحياة ، فلا يأبه بطغيان طاغية ، أو بسلطان ذى سلطان ، ويزن أعماله بميزان دقيق أساسه مراقبة الله ، وتحكيم ضمير الإنسان فى كل عمل وكل خاطرة ، وكل التفاتة ، وليس التصوف كما يزعم السلفيون شركا ، بل إنه التوحيد الخالص ، والتأسى بسيرة الصالحين والأولياء والمتقين ، واتخاذ شيخ مرشد يستفتيه الإنسان الصوفى - فى يقظته ونومه، وفى شروده وصحوه، وفى نعمته ومحنته ، فى سلوكه وأعماله ، كل وقت وحين .

جاء فى أحد الأمثال الصينية العريقة فى القدم : « إذا لم تستطع أن تنظر أمامك - لأن مستقبلك مظلم - ولا خلفك - لأن ماضيك مؤلم - فارفع بصرك إلى فوق تجد الراحة والسكينة » .

ويقول « أوليفر لودج » : إن من يميل إلى حسبان الإنسان من الكائنات المادية يخطىء فى حق الله ، كما يخطىء فى حق الروح البشرية فإن علاقتنا بالمادة شىء - فى الحق - ثانوى جداً ، وصلاتنا بالروح هى الصلة الفطرية الأولى ، فإننا بلا ريب مخلوقات روحية شغلتنا المادة قليلا عن الحقيقة الواضحة » ، ثم يقول « إن الذى يحركنا ويدفعنا إلى تلك الأعمال العظيمة التى أتاها الإنسان ، والتى يبشر بها مستقبله ، هو الروح لا هذا الغلاف المادى الجسدى » .

وما يقوله « أوليفر لودج » هو الحق ؛ فالإنسان كائن روحى بحكم تغليب أرقى عناصره على أدناها ، ولأن الجانب المادى فى الإنسان ، أعجز

من أن يطاول الروح فى السيادة ، لأنها من عالم أرقى من عالمه ، وقد خدعتنا أهواء هذا البدن وشهواته عن تلك الحقيقة الأولية ، ورسالتنا الكبرى فى هذا الوجود أن نلمس تلك الحقيقة فنسكت ضجيج البدن وصيحاته ؛ فإن فعلنا أشرقت علينا أضواء هذا العالم الروحى العظيم(١) .

والتصوف ليس — كما يقول أحد الكتاب(٢) — خمولا وانهزاما ، ولا فتورا وضعفا ، ولا تواكلا وهوانا . بل هو قوة ونضال ، ومعرفة وإيمان ، وقوة روحية تكمن وراء كل حركة وخاطرة ؛ إنه ليس حركة زهد وعبادة فحسب ، بل هو معرفة ويقين ، وحركة بعث للقوى الروحية والوجدانية ، أقوى ما يكون البعث ، وأشد ما تكون الحركة .

يقول « برديف » متحدثا عن الروح(٣) أو الصوفية العملية : « إن العالم اليوم يدلج نحو صوفية وروحانية جديدة ، لامحل فيها لتلفت النظرة النكسية إلى الدنيا ، ولا لما توحيه تلك النظرة النكسية من العزلة واجتناب الجماعات والآحاد ، ولا يبقى فيها النسك إلا كوسيلة أو رياضة على التطهر والصفاء ، وهو يتجه إلى الدنيا ، ولكن لايعتبرها نهاية الغايات ، فهو مسلك من النسك أشد اتصالا بالدنيا وأكثر تحررا منها فى وقت واحد ، أو هو مسلك نحو العمق الروحانى ، تقوى فيه دعوة الخلاص ، وتتجلى فيه معرفة صادقة أقدر على السلامة من أوهاق الغايات الدنيوية ، التى ابتلى بها المعرفون الأقدمون ، وتتلاقى ثمة أشتات النقائض المعذبة والنحل الموزعة ، ويومئذ تنتصر الصوفية على أباطيل الدعوات الاجتماعية المتشبهة بها ، وتنتصر دولة الروح على دولة قيصر » .

---

(١) ٢ : ٩ من أعلام التصوف الاسلامى — طه سرور .

(٢) طه عبد الباقى سرور — مجلة المسلم ١٣٧٥ هـ

(٣) عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص ١٣٥

ويقول عالم الذرة « اينشتين »(١): « إن الإنسان الذى لم يختبر وقفة من وقفات الصوفية حيال ذلك العالم ، ولم يشعر نحوه بالروعة ، هو حى حكمه حكم الميت » ثم يقول : كنت كلما تعمقت فى نظرية النسبية ازدادت قربا من منطقة الروح والإيمان .

ويقول السير آرثر تومسون : « الذى نحن على يقين منه أننا بحاجة إلى مزيد من العلم ومزيد من الدين » ، ويقول العلامة هكسلى : إن تفجرات الذرة حطمت الأسوار الفاصلة بين العلم المادى والإيمان الدينى » .

ويقول العلامة الفرنسى برجسون(٢) : الانسانية اليوم أكبر ماتكون حاجة إلى الوثبة الروحية حتى تقيم التعادل مع وثبتها المادية ، فإن الأداة التى يستعملها العامل هى ذراعه ، وأدوات الانسانية هى إذن امتداد لجسمها . إن الطبيعة حين مهرتنا هذا العقل الصانع فى جوهره ، قد أعدتنا لهذا النوع من الكبر أو التضخم . ولكن هذه الآلات التى تتحرك اليوم بالنفط ، والفحم ، والكهرباء ، فتقلب الطاقات الكامنة التى تراكمت خلال ملايين السنين إلى حركة قد وهبت لجسمنا امتداداً هائل السعة والقوة غير متناسب مع سعة جسمنا وقوته ، بحيث يمكن القول بأنه ليس فى مخطط بنيان النوع الإنسانى ما ينبىء بشىء من هذا . فقد كان ذلك حظاً فريدا وهو أكبر ظفر مادى أصابه الإنسان على هذه السيارة ، ولعل ثمت دفعة روحية بثت فى البدء ، ثم تم الاتساع على نحو آلى تساعده ضربة المعول العارضة التى اصطدمت تحت الأرض بكنز عجيب . ولكن هذا الجسم الذى تضخم تضخما هائلا قد ظلت النفس التى تثوى فيه كما كانت ، وأصبحت بالنسبة إليه صغيرة جداً فما تملؤه ؟ وأصبحت بالنسبة إليه

---

(١) عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص ٩٨

(٢) منابع الدين والأخلاق ص ٢٧٨

ضعيفة جدا فما تستطيع أن توجهه ، ومن ثم كان بينه وبينها فراغ ! ومن ثم كانت هذه المشكلات الاجتماعية والسياسية العالمية الهائلة ، وما هي إلا تعريفات لهذا الفراغ ، تريد أن تملأه فتستثير اليوم جهودا كثيرة لانظام فيها ولا جدوى ؟ فالحقيقة أنه لابد اليوم من مدخرات جديدة من الطاقة الكامنة التي يجب أن تكون الآن روحية ؛ وينبغي أن لانكتفي بالقول كما قلنا من قبل : إن الصوفية تنادي الآلية : بل يجب أن نضيف إلى - قولنا هذا - أن الجسم الذي تضخم ينتظر الآن تتمة روحية ؛ وأن الآلية بحاجة إلى صوفية ، ولعل أصول هذه الآلية صوفية أكثر مما يظن ؟ وهي لن ترتد إلى اتجاهها الحق ، ولن تكون خدماتها متناسبة مع قوتها ، إلا إذا استطاعت الإنسانية التي انحنت بتأثيرها نحو الأرض أن تتوصل بتأثيرها أيضاً إلى الانتصاب ثانية والرنو إلى السماء .

ثم يقول : « وما أحسب أن النجدة المنقذة إلا آتية من قبل مشرق الشمس ، من الشرق الروحي الذي يملك أروع القوى الصوفية » .

« إن (١) الإنسان العصري ، وقد أعشاه نشاطه العقلي ، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة ، أي إلى حياة روحية تتغلغل في أعماق النفس فهو في حلبة الفكر في صراع صريح مع نفسه ، وهو في مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية في كفاح صريح مع غيره ، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة ، وحبه للمال حباً جماً طاغياً ، يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئاً فشيئاً ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة .

فالتصوف هو روح الإسلام ، وهو الروحية المطمئنة التي تسمو بعلاقة الإنسان بالله ، وترتفع بها عن أدران المادية العمياء ، وتغمر أضواؤها جوارحه ومشاعره وخطرات نفسه .

---

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام ص ٢١٥ - ٢١٦ .

والتصوف هو الكمال الروحى بأجلى معانيه، وهو التطهير الخلقى بأوسع مدلولاته، وهو محاولة التشبه بالأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، وهو الارتفاع بالإنسان من حضيض الظلام إلى قمم النور وهو التوحيد الكامل، والإيمان المطلق، ومحاربة الشرك فى كل خطرة من خطرات الإنسان، والتفاتة من التفاتاته.

أرأيت الإنسان فى الحياة كيف يسير فى صحراء ليست لها حدود، ويتنقل على مر السنين بين الأغلال والقيود؛ أليس هو فى حاجة إلى معالم تكشف له الطريق، وتوضح أمامه الهدف، وتجدد فى نفسه الأمل، وتقوى فى روحه العزم على متابعة السير؛ وأليس هو فى حاجة إلى أمداد تعينه وتقويه، وتطهره وتزكيه، وإلى من يحرر نفسه دائماً من أغلال الخوف وأوهام العبودية، وطواغيت الحياة.

إن العقيدة هى هذا المنقذ والمطهر والمحرر، وإن التصوف هو الذى يملك زمام العقيدة حتى لاتضعف ولا تهن، ولا تتبدل حقائقها. ولا تفتر أسبابها، أمام تطور الحياة وخطوبها وأحداثها؛ وعندما يمشى المسلم الحق فى مهامه هذه الحياة، ومعه هذا النور يجد تلك الصحراء القاحلة، قد استحالت إلى جنة وارفة الظلال، وإلى واحات ممدودة متصلة، تخفف عن نفسه ما أصابها من لفح الهجير، وشقاء العيش، ووطأة الأحداث؛ وتمد روحه بأسمى معانى القوة والسمو والعظمة فى معركة الحياة.

— ٣ —

والصوفيون خلال عصور التاريخ الإسلامى كانوا هم أطباء الأرواح، وكان التصوف الدواء الناجح الذى تعالج به أزمات النفس، ومشكلات العاطفة، وحدة انفعال المشاعر.. وهم فوق ذلك الذين نشروا الإسلام فى نائى الأصقاع، وحملوا رسالته إلى مجهول البقاع، وهم الذين خدموا الفكر الإسلامى،

ونشروا الحقيقة المحمدية بيضاء ناصعة فى كل مكان . وقد كان منهم فى كل عصر أعلام خلدت الأيام لهم أروع الصفحات ، وروى التاريخ عنهم أمجد الذكريات ؛ وظلوا بمآثرهم قـــدوة رفيعة للمسلمين طيلة متعاقب الحقب والأجيال ؛ ومواقف العز بن عبد السلام وأشباهه خالدة مأثورة .

والصوفيون لا يفهمون التصوف على أنه ادعاء الكرامة وحب إظهار الولاية ، ولا على أنه سبب لمجد أو ذكر أو ثراء ؛ بل يجعلونه لله خالصاً ، ويؤمنون بأنه رسالة ومبادىء ودعوة رفيعة ، تستند إلى دعوة الإسلام ومبادئه الخالدة ؛ ويعملون على نشر الروحية الصافية وإذاعتها بين الناس .

— ٤ —

على أن مذهب التصوف فى الإسلام عرفه الصحابة ، فنحوا منحاه فى الزهد والتجرد والانقطاع عن الدنيا من مثل : أبى ذر ، والمقداد بن الأسود ، وسلمان الفارسى ، وحذا حذوهم بعض التابعين مثل : أويس القرنى ، والحسن البصرى ، وجاء بعد ذلك : حبيب العجمى ، ورابعة العدوية وابن أدهم ، وداود الطائى ، ومعروف الكرخى ، وبشر الحافى ، وأبو سعيد الخراز ، والبسطامى ، والحارث المحاسبى ، والسرى السقطى ، وسواهم . ثم ظهر شيخ الصوفية وإمام الصوفيين الجنيد ، فضبط قواعد التصوف ، وأصوله وأعلامه ، وتتلمذ عليه الشبلى ، والدينورى ، وظهر الحلاج والقشيرى ، والغزالى ، وعبد القادر الجيلانى ، وابن الفارض ، وابن العربى ، وعبد الكريم الجيلى ، والشاذلى ، والبدوى ، وجلال الدين الرومى ، وابن عطاء الله السكندرى ، وسواهم من شيوخ الصوفية فى مصر والعالم الإسلامى ، وانتشر التصوف فى جاوة فى أواخر القرن الثامن الهجرى على أيدى أتباع الكتانية ، وشيخهم السيد محمد الباقر الكتانى .

وإذا ذكر أعلام الصوفية فى العالم الإسلامى ، من أمثال أويس بن

عامر القرنى الشهيد فى معركة صفين مع الإمام على كرم الله وجهه، والخراسانى أبى مسلم حكيم الأمة المتوفى عام ٦٢ ه، والحسن البصرى المتوفى عام ١١٠ ه ومالك بن دينار م ١٣١ ه، ورابعة العدوية البصرية م ١٨٥ ه، وعمر بن ذر ١٥٦ ه، وابن أدهم م١٦١ ه، وداود بن نصر الطائى الكوفى م١٦٥ ه، والفضيل ابن عياض م ١٧٨ ه، ومعروف الكرخى م ٢٠٠ ه، وأبى سليمان الدارانى م ٢٠٥ ه، والتسترى المتوفى عام ٢٨٣ ه، وبشر الحافى م ٢٢٧ ه، والحارث ابن أسد المحاسبى م ٢٤٣ ه، والجنيد، والحلاج م ٣٠٧، والشبلى ٣٣٤ ه، والغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥ ه)، والجيلانى، والعطار، وجلال الدين الرومى، وأبى مدين المغربى، وسواهم.

فإننا نذكر بالفخار جميع أعلام التصوف الإسلامى، الذين تتابعت طبقاتهم جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن، وأسسوا طرقا واصلة إلى الله، وجامعات كبرى خرجت أعلام الأمة الإسلامية، ومدارس فكرية وروحية كان لها أبعد الأثر فى تاريخ الشرق والعالم الإسلامى. مما لانجد غنى للشباب الإسلامى عامة والعربى خاصة عن تتبع مفاخرهم ومآثرهم، لعل فى ذلك مايدفع إلى القدوة الطيبة، وإلى التأسى بهؤلاء الأعلام الخالدين فى تاريخنا القومى والفكرى.

وكيف ننسى ذا النون المصرى، أوعبدالله بن وهب، أوالليث بن سعد، أو أبا الحسن بنانا الزاهد، أو عبد الرحيم القنائى، أو الشاطبى الضرير، أوابن الفارض، أوالبوصيرى، أوالعز بن عبد السلام، أوابن دقيق العيد، أوأبا الحسن الشاذلى، أوأبا العباس المرسى، أوابن عطاء الله السكندرى، أوقطب الدين القسطلانى، أوابراهيم الدسوقى القرشى، أو أحمد البدوى، أو تقى الدين السبكى، أو سراج الدين البلقينى، أو شمس الدين الحنفى، أو الشيخ مدين الأشمونى، أو شيخ الإسلام زكريا الأنصارى، أو محمد الشناوى، أو الإمام الشعرانى م ٩٧٣ ه، أو على الخواص، أو

عبد الرؤوف المناوى، أو الشيخ الخرشى المالكى، أو الشيخ عبدالله الشبراوى، أو الشيخ على البيومى ، أو الشيخ الدمنهورى ، أو الشيخ أحمد الدردير ، أو الشيخ عبد الله الشرقاوى ، أو الشيخ السادات ، أو عمر مكرم ، وهم ممن شهروا فى التصوف ، وطارت شهرتهم فى العالم الإسلامى ، وكلهم من إقليم واحد هو مصر ، فما بالك بالأقاليم الإسلامية الأخرى ، إن هؤلاء وسواهم من آلاف الأعلام فى تاريخنا القومى والروحى ، وممن خدموا مصر والعالم الإسلامى خدمات جليلة ، قد أنشأوا أجيالا قوية من الشباب الذين رفعوا بأيديهم القوية ركب التقدم فى مصر والشعوب الإسلامية ، وتتلمذ عليهم آلاف الشباب من شتى البلاد العربية الإسلامية .

كيف ننسى هذا التراث الروحى ، أو نغض من قيمته ، وهو جزء مهم من تاريخنا الوطنى والسياسى ، فهؤلاء الصوفيون الأعلام هم الذين قاوموا طغيان الحكام ، وانتصروا للشعب فى محنته ، وكافحوا الاستعمار الصليبى والتركى والفرنسى والإنجليزى ، كما كافحوا من قبل ظلم المماليك وطغيانهم ، وهم الذين قوموا الشباب الإسلامى فى مختلف العصور ، وأعدوه لحمل رسالته الوطنية والعربية والإسلامية لخير العروبة والإسلام ، وهم الذين ربوا الشعب تربية قومية أهلته لزعامة العالم الإسلامى بعد سقوط بغداد ، وجعلت جيوشه تنتصر على الصليبيين فى حطين ودمياط والمنصورة ؛ وعلى التتار فى « عين جالوت » وسواها من المعارك الخالدة ، وعلى الفرنسيين والانجليز فى كل مكان ، وتنتصر كذلك فى الجزيرة العربية وفى آسيا الصغرى والشام واليونان وفى كل مكان ، فى القرن التاسع عشر الميلادى . والتصوف يدفع دائما إلى الانتصار للعقيدة والوطن، فكل هذا المجد العظيم قد أقام دعامته الأولى الصوفيون فى مختلف عصورنا التاريخية . . ولو لم يكن من بين رجال الصوفية فى القديم والحديث إلا أمثال الدردير والشرقاوى والسادات وعمر مكرم ، لكفى ذلك فخرا ومجدا للتصوف ورجاله ، ونحن عندما نقول رجال التصوف لا نعنى أن

كل واحد منهم صار مثل العز بن عبد السلام أومثل العلامة شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن عبد الحق السنباطى ، أومثل الدردير ، وإنما يكفى أن تكون أغلبيتهم سائرة على نهج هؤلاء الأئمة الكبار ، والزعماء القادة المصلحين ، ومتأسية بجهادهم وصادق بلائهم العظيم فى خدمة الإسلام والمسلمين .

ولا يقتصر فضل التصوف وأثره على مصر وحدها فإن السنوسية بزعامة الصوفى محمد بن على السنوسى مؤسس الطريقة السنوسية فى ليبيا قد كافحت الجهل والفوضى ، وبنت المعاهد ، وربت الرجال ، وناهضت الاستعمار فى السودان الفرنسى ، وكان أحمد السنوسى حفيد مؤسسها يقضى جل حياته فى كفاح الاستعمار الإيطالى ، وزعماء التصوف فى تونس هم الذين قاوموا الغزو الفرنسى لبلادهم إبان ذاك ، ومنهم : أحمد بن أبى القاسم الشابى الصوفى المتوفى عام ١٣٤٠ هـ ، ومن قبل كان شمس الدين الدمياطى يرابط فى ثغر دمياط للقاء العدو(١) وعلى أثره نهج السيد محمد خفاجى الصوفى لجهاد العدو كما هو مدون فى تاريخه (٢) .

وكان للصوفية أكبر الأثر فى توطيد دعائم الإسلام بين البربر فى مراكش الإسلامية . ثم نجد أن حركات الصوفية فى القرن الماضى، من مكة إلى القاهرة وجغبوب إلى بغداد والقسطنطينية إلى فاس وتمبكتو والخرطوم وزنجبار ، إلى جاوة وكلكتا ، كان لها الفضل الأكبر فى حفظ الإسلام ونشره فى شتى أنحاء العالم والآفاق وقد انتشر الإسلام فى جاوة على أيدى أتباع الطرق الصوفية .

وكافح الشيخ حسن بن على الكوثرى والد الشيخ زاهد الكوثرى طول

---

(١) ١٦٤ و ١٦٥ / ٢ الطبقات الكبرى .

(٢) بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى .

حياته (١٢٤٥ — ١٣٤٥ هـ) فى سبيل العلم وتدريسه وتربية المريدين ، وكان أستاذه فى الله هو الصوفى المحدث ضياء الدين وغيره من كبار النقشبنديين ، وكانت هجرتهم من القوقاز عام ١٢٨٠ هـ بعد أن دافعوا عن بلادهم ، وذادوا عنها الروس. والشيخ ضياء الدين أحمد الكمشخانوى صوفى رومى نقشبندى، وقد حارب الروس فى جهة الشرق متطوعا . وساق الشيخ أحمد شاكر ابن خليل علامة الروم المشهور بالورع كتيبة من متطوعى العلماء والطلاب حتى فتحوا مدينة « علكسانيج » فى حرب الصرب ، وألقى يوم الفتح خطبة الجمعة باسم الخليفة فى أكبر كنيسة هناك .

وهذه هى الطريقة الكتانية تكافح الاستعمار الفرنسى بالمغرب العربى ، والمهدية فى السودان ، حاربت الاستعمار الإنجليزى فى بدء سعيه للتغلغل فى قلب إفريقيا ؛ وفى سوريا كان فى مقدمة الذين كافحوا الاستعمار الفرنسى أسرة الغلاييني التى منها شيوخ الطريقة النقشبندية، ووقف بجوارها شيوخ الطريقة الشاذلية وسواهم من جماهير الشعب .

والحركات الفكرية والتجديدية فى الإسلام إنما كانت أثراً لأئمة التصوف الإسلامى ولجهودهم الضخمة فى التمكين للإسلام والعمل على النهوض بالمسلمين ، كما فعل الغزالى ومحيى الدين بن عربى ، وسواهما .

بل إنه لم ينتشر الإسلام فى أواسط إفريقيا ، وفى الممالك النائية من آسيا وأوربا كبلغاريا وأندونيسيا إلا على أيدى الدعاة من الصوفيين المجاهدين .

وكثيراً ما نقرأ فى تاريخنا الفكرى أن أئمة العلماء كانوا يتسابقون إلى الصفوف الأولى فى كتائب المجاهدين ، ويداومون على الخروج إلى الغزو والمرابطة فى الثغور الإسلامية ، فهذا الإمام الشافعى رضى الله عنه رابط حين قدم مصر بثغر الإسكندرية تجاه العدو لحماية بلاد الإسلام ، وكان عبد الله بن المبارك يقف حارسا للثغور الإسلامية أمام العدو .

وكان شيخ الإسلام الصوفى محمد سعد الدين المتوفى عام ١٠٠٨ هـ مع السلطان العثمانى محمد الثالث فى حرب هنغاريا وحضر الموقعة المشهورة « أكرى » ، وكر الصليبيون على الجيش الإسلامى وكادوا يفتكون به ، لولا أن قام الشيخ سعد الدين وأخذ بزمام جواد السلطان ، وحول اتجاهه إلى جهة جيش العدو على الرغم من تدفق جيش العدو من كل جانب كالسيل، وقال للسلطان بصوت مسموع : إنما نعيش لمثل هذا اليوم ، نموت ولا نرى ذل الإسلام ، وبفضله ثارت الحمية فى نفوس الجيش كله فحملوا على الأعداء حملة صادقة ، وشتتوا شملهم ، وكتب الله للإسلام النصر المبين . ومن قبل كان « إلب رسلان » فى أحد حروبه وقد أحاط به الأعداء وكاد يستسلم ، فقام الشيخ أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى الصوفى ، وتكلم بكلمة أشعلت نار الحماسة فى الملك وجيشه ، فحملوا على الأعداء ، وانتصروا عليهم ، وهزموا جيش الملك « أرمانوس » المسيحى عام ٤٦٣ هـ ، وأسروه نفسه ، وشارك شيخ الإسلام « أسعد سعد الدين » أخو شيخ الإسلام محمد سعد الدين فى حرب « ارال » مع السلطان ، ولما اختل أمر الخلافة فى عهد السلطان مصطفى خان الأول قال له فى صراحة وقوة : « إن أمر المملكة اختل، وإن الأعداء تسلطوا علينا ، ونحن نخشى ضياع الملك ، وأنت لست بلائق للسلطنة » .

— ٥ —

بل إن التصوف الإسلامى قد أثر فى أوروبا تأثيراً كبيراً ، فحركة الفروسية فى أوربا قديما ماهى إلا امتداد لحركات الصوفية عند المسلمين، ويقول البروفسور الألمانى المستشرق « أرنست باترث » من محاضرة له حول تأثير الحضارة الإسلامية فى الفكر الأوربى (١) : « ألف مستشرق أسبانى

---

(١) كان المستشرق قد ألقى هذه المحاضرة فى نادى جمعية المعلمين بالموصل ، ونشرتها جريدة فتى العراق فى عددها الصادر فى ٨ من أغسطس ١٩٥٥

كتابا ضخما عن تأثر أكبر المتصوفين فى الدين الكاثوليكى المسمى « يوحنا الصليب » فى القرن السادس عشر بمعتقدات الطريقة الشاذلية الإسلامية » ، وأثبت المستشرق الألمانى أن يوحنا كان يستعمل اصطلاحات ومجازات لايخفى أن منبعها كتاب إمام شاذلى أندلسى فى القرن الخامس عشر اسمه « لوندى » وكان يطلب فى هذا الكتاب من المريد أعلى درجات الإخلاص.

ويقول جون كامبل مثبتا أن العلم الحديث من ابتكار المسلمين [1] مانصه : « فى ميدان العلم نجحت مصاعب عديدة لقلة ما استعاره الكيماويون الغربيون من العرب ، فالفضل يعزى للافوازييه فى إدخال المعـــادلات فى البحث الكيماوى ، بينما نرى أن الكيمائى العربى « جابر أبو موسى جعفر الصوفى » يقول فى القرن الثانى عشر إن الرصاص إذا أحمى ثم ترك يبرد فى الهواء فان المعدن الناتج يصبح أثقل من المعدن الأصلى ؛ ومعنى ذلك أن شخصا هو ذلك الصوفى[2] . قد عرف المعادلات قبل أن يفكر فيها لافوازييه » .

وإقبال وشعره يعزى إليه فضل التبشير بميلاد الباكستان التى تعتز بإقبال (١٨٧٧ — ٢١ أبريل ١٩٣٨ م) وبشعره وفلسفته اعتزازا كبيرا .

— ٦ —

ولدينا نماذج كثيرة لمواقف الصوفيين فى سبيل الحرية والشعوب الإسلامية ، منها هذه النماذج القليلة ، التى تعد أمثلة حية ، وصفحات مجيدة من تاريخ مصر ، ومن كفاح المصريين فى سبيل تقدم المسلمين ورفاهيتهم ومجدهم .

١ — كان أبو الحسن[3] بنان الزاهد من الصوفيين الأحرار فى عهد ابن

---

(١) مجلة رسالة الباكستان ١٣٧٥ - ١٩٥٥ ، ومجلة المسلم ربيع الآخر ١٣٧٥هـ

(٢) راجع ترجمته فى القفطى « إخبار العلماء بأخبار الحكماء »

(٣) ص ٢١٩ : ١ حسن المحاضرة ، ٨٤ : ١ الطبقات الكبرى ، ٤٧ و ٤٨ التراث الروحى لخفاجى .

طولون ، وكان ذا منزلة عظيمة فى النفوس ، وكان يعد من كبار مشايخ مصر وأعلامها ، وكان ينكر على والى مصر أحمد بن طولون أشياء استنكرها ، وفى يوم ذهب إلى ابن طولون يأمره بالمعروف فغضب عليه ، وأمر به أن يلقى بين يدى أسد عظيم ، وألقى هذا الصوفى الورع بين يدى الأسد ، ونجاه الله ، فرفعه ابن طولون من بين يدى الأسد ، وزاد تعظيم النـاس له . . وسأله بعض مريديه : كيف كان حالك وأنت فى الأغلال قد ألقى بك بين يدى الأسد ، فقال : لم يكن على بأس ، ولكنى كنت أفكر فى سؤر الأسد : أهو طاهر أم نجس ؟

٢ — وفى عام ٦٤٧ ﻫ انضم العلماء والفقهاء والصوفية إلى الجيش المصرى ، وحاربوا فى صفوفه ، فى معركة المنصورة التى أسر فيها لويس التاسع ملك فرنسا هو وكبار قواده وأركان حربه ، وكان من المشتركين فى هذه المعركة الخالدة : الشيخ عز الدين بن عبد السلام (٥٧٧ — ٦٦٠ ﻫ) ، والشيخ مكين الأسمر ، والشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، والشيخ أبو الحسن الشاذلى ، وسواهم .

٣ — وكان العز بن عبد السلام شديدا فى الحق آمرا بالمعروف لا يترك النهى عن المنكر ولو كان فى ذلك حتفه ؛ صعد مرة إلى القلعة فى يوم عيد لتهنئة السلطان ، فشاهد السلطان وقد أبطرته النعمة ، وزينت له نفسه الغرور ، والأمراء تقبل الأرض بين يديه ، كأنه إله يعبد من دون الله ، فصاح الشيخ بالسلطان وناداه يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوىء لك ملك مصر ، والمعاصى ترتكب علنا بجوار قصرك ، وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة ، فوجم السلطان ولم ينبس ببنت شفة ، وسأله أحد تلاميذه لما جاء من عند السلطان : ياسيدى الشيخ ، كيف حالك مع السلطان ؟ . فقال يا بنى ؟ رأيته فى تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه ، فقال التلميذ له : ياسيدى أما خفته ؟ قال : والله يا بنى

لقد استحضرت عظمة الله تعالى فصار السلطان أمامى وكأنه ذرة حقيرة .

وغضب عليه السلطان يوما ، وبعث إليه من يقول له : لا تفت فى الناس ، ولا تجتمع بأحد ، والزم بيتك ، فرد عليه الشيخ قائلا : الحمد لله إن ذلك من نعم الله الجزيلة على ، الموجبة للشكر لله تعالى على الدوام ، أما الفتيا فإنى كنت والله متبرما منها كارها لها اعتقد أن المفتى على شفير جهنم ، ولولا أنى أعتقد أن الله أوجبها على لما قمت بها ، وأما ترك اجتماعى بالناس ولزوم بيتى فأمرهما إلى الله ، إن شاء فعلت وإن شاء لم أفعل ، وإن من سعادتى لزومى لبيتى وتفرغى لعبادة ربى ، والسعيد من لزم بيته ، وبكى على خطيئة ، واشتغل بطاعة الله تعالى ، وإن هذا هدية من الله تعالى إلى أجراها على يدى السلطان وهو غضبان ، وأنا بها فرحان ، وسكت الشيخ ، ثم التفت إلى رسول السلطان وقال له : لو كانت عندى هدية تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لأهديتها لك ، خذ هذه السجادة صل عليها . فأخذها الرسول وانصرف إلى السلطان وذكر له ماجرى بينه وبين الشيخ ، فقال السلطان لحاشيته : قولوا لى ماذا أفعل بهذا الرجل ، الذى يرى العقوبة نعمة ، اتركوه ، بيننا وبينه الله تعالى .

وفى آخر عهد الدولة الأيوبية استكثر السلطان الصالح نجم الدين أيوب من المماليك ، وأعتقهم وأمرهم على البـــلاد ، ونصبهم أمراء وقوادا فى الجيش المصرى ، يحكمون الجيش والبلاد ، وزاد ظلم هؤلاء الأمراء للشعب ، واستبدادهم بمصالحه ، فغضب ابن عبد السلام غضبا شديدا ، وقال إن هؤلاء الأمراء الأتراك أرقاء بحكم الشرع للشعب المصرى الذى هو سيدهم الأكبر ، إن السلطان قد اشتراهم بمال الدولة وإنه لا يملك عتقهم ، وما زال حكم الرق مستصحبا عليهم لبيت مال المسلمين ، وبلغت الفتوى ، وأنه لا بد من بيعهم وصرف ثمنهم فى وجوه الخير ومصالح الأمة ، لهؤلاء الأمراء ، وكان من بينهم نائب السلطان ، وكلهم من أصحاب

النفوذ والحكم والسلطان ، وثار الأمراء ، وامتلأوا غيظا ، وعجبوا مما صنعه العز بن عبد السلام ، وأرسلوا إليه ليكف عن صنيعه الذى لا يليق أن يصنعه معهم وهم أصحاب النفوذ والسلطان فى مصر ، ولم يبال الشيخ بذلك وصمم على فتواه ، وأذاعها فى الناس ، وامتنع عن أن يصحح لهم بيعا أو شراء أو زواجا .

ولما بعثوا إليه قال : لا بأس ، نعقد لكم مجلسا ، وننادى عليك ببيعكم لبيت مال المسلمين وتدفعون ثمن رقابكم ليحصل عتقكم بطريق شرعى ، وكلمه السلطان فرد الشيخ عليه يقول له : إنه لابد له من أن ينفذ فتواه ، لأنها كلمة الشرع ، وحق الإسلام ، وإنه سينادى على أولئك الأمراء بالبيع ويقبض ثمنهم ، وإلا فإنه سيعزل نفسه من منصب القضاء ، ويترك فتواه قائمة فى البلاد الإسلامية ، فأغلظ السلطان على الشيخ غلظة شديدة ، وأنكر عليه دخوله فى هذا الأمر الذى لا ناقة فيه ولا جمل .

فغضب الشيخ ، ووضع كتبه على حمار وامرأته على حمار آخر ، ومشى خلفهم خارجا من القاهرة ، قاصـــدا نحو الشام ، وسار قليلا ، فخرج الآلاف من الناس وراءه يهاجرون لهجرته ، وخرج العلماء والصالحون والتجار حتى النساء والصبيان والجميع يبكون ، وبلغ السلطان ذلك وقيل له : إن الشيخ إن ذهب فسيذهب ملكك ، وستقوم الثورة عليك فى كل مكان ، فركب السلطان بنفسه ، ولحق به واسترضاه ، وطيب قلبه ، فرجع العز وسط الجموع الحاشدة ، وغضب نائب السلطان ، وقال : كيف ينادى علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض ، والله لأضربنه بسيفى هذا ، وركب جواده ، وشهر السيف فى يده وحوله أعوانه ، وطرق باب الشيخ ، فشاهد ابن الشيخ هذا المنظر الرهيب وعاد إلى والده يخبره الخبر : نائب السلطان على فرسه ، والسيف فى يده ، وهو يطرق الباب طرقا شديدا ، إنه يريد شرا . ورد الشيخ على ابنه يقول : يابنى أبوك

أقل من أن يقتل فى سبيل الله ، وخرج خارج البيت وكأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطان ، الذى يبست يده وسقط منها السيف ، وقال : ياسيدى الشيخ أى شىء تعمل ، قال : أنادى عليكم بالبيع وأبيعكم ، قال : ففيم تصرف ثمننا ؟ قال : فى مصالح المسلمين ، قال : فمن يقبضه ؟ قال الشيخ : أنا .

وفى الصباح عقد مجلس كبير وحضر السلطان ، وحشد الأمراء الأتراك جميعا وأخذ الشيخ ينادى عليهم بالبيع واحد واحدا . ويغالى فى ثمنهم لأنهم أمراء ولأنهم أصحاب السلطان ، وغالى أكثر ماغالى فى ثمن نائب السلطان ، فدفع السلطان إلى الشيخ كل ماأراد من مال ، وأخذه الشيخ فوزعه فى وجوه الخير ومصالح الشعب ، ثم أعتق الأمراء الأرقاء ، ومنحهم حق الحرية فى التصرف والبيع والشراء .

ولما توفى الشيخ فى اليوم التاسع من شهر جمادى الأولى عام ٦٦٠ ه خرج سلطان مصر الملك الظاهر بيبرس ركن الدين ، ومعه الأمراء والشعب يشيعون جنازته ، وحزن عليه السلطان كثيرا ، وحمل نعشه على كتفه ، وهو يقول : لا إله إلاالله . إن العزبن عبدالسلام لم يتفق موته إلا فىدولتى؛ ويروى أن الظاهر قال لبعض خواصه : اليوم استقر أمرى فى الملك ، لأن هذا الشيخ لو أمر الناس بالثورة على سلطانى لانتزع الملك منى .

وكان العز بن عبد السلام لايبالى بشىء فى سبيل كلمة الحق يقولها ، ومما يؤثر عنه قبل قدومه إلى مصر ، أن سلطان بلده استنجد بالصليبيين ضد سلطان مصر ، الملك نجم الدين أيوب ، فغضب العز بن عبد السلام غضباً شديداً ، وأسقط اسم سلطان بلده من الخطبة ، وأعلن الثورة عليه والكفاح ضده ، فعزله سلطانه من مناصبه ، وأرسل إليه السلطان من يقول له : ما بينك وبين أن تعود إلى وظائفك ، وما كنت عليه وأكثر مما كنت عليه ، إلا أن تتخشع للسلطان وتقبل يده ، فقال الشيخ فى جرأة وقوة :

يامسكين أنا لاأرضى أن يقبل سلطانكم يدى ، أنتم فى واد وأنا فى واد .

٤ — ومن الأحرار المصريين : شمس الدين الحنفى المتوفى عام ٨٤٧ هـ ، ومما يؤثر عنه أن سلطان مصر الملك فرج بن برقوق بعد أن هزم التتار فى أرض الشام كان يظلم الرعية ويجور فى حكمها ، فكان الإمام شمس الدين الحنفى يعارضه ويندد به ويجمع الناس على عصيان أوامره ، فأخذ فرج يضطهد الشيخ ويضيق عليه الخناق ، ويغلظ له القول ، ويعنف فى معاملته ، وتلاقيا السلطان والشيخ فى يوم من الأيام فقال السلطان للشيخ : المملكة لى أولك ، فقال الشيخ : إنها ليست لى ولا لك ، إنها لله الواحد القهار ؛ وقام الشيخ وهو يقول لحاشية السلطان قولوا له : لاتعد إلا قلة الأدب . وذهب الملك المؤيد إلى الشيخ مرة ليزوره فى زاويته ، فوجد الشيخ فوق سطح الزاوية . فصعد أتباع الملك يخبرونه بقدومه . ففاجأهم بقوله : قولوا له إنه لايحب أن يجتمع بأحد فى هذا الوقت . فعاد المؤيد من حيث أتى . وبعث أحد الأمراء إلى الشيخ مرة بأموال من فضة . فوزعها الشيخ كلها على الفقراء ، وبلغ الأمير ماصنع الشيخ فلبس ملابسه وذهب متعجبا ليزور الشيخ . ودخل عليه . ولم يملك إلا أن انحنى وقبل يدى الشيخ .

٥ — ومن أعلام المصريين الأحرار : شمس الدين الديروطى : وكان واعظا فى الجامع الأزهر فى عهد الغورى ، كما كان مجاهدا صائما قائما آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر ، ويصف الإمام الشعرانى مجلس وعظه فى الأزهر الشريف فيقول : كان مجلسا تفيض فيه العيون ، إذا تكلم أنصت الناس بأجمعهم ، وكان يجلس فى المجلس أكابر الدولة والأمراء والقواد ، وكان رحمه الله مع ذلك شجاعا مقداما لايهاب شيئا أو أحداً ، وفى عهد الغورى فقدت مصر السيطرة البحرية لأن الغورى أهمل العناية بالأسطول المصرى حتى تفوقت عليه أساطيل البرتغال . وأخذت منه زمام السيطرة على البحار ، فذهب الشيخ شمس الدين الديروطى إلى الغورى وألقى عليه

تحية الإسلام فلم يرد عليه فقال له الشيخ : إن لم ترد السلام فسقت وعزلت ، فقال الغورى : وعليكم السلام ورحمة الله ، ثم التفت الغورى إلى الشيخ قائلا : لماذا تعيب على وتحرض ضدى ، تريد أن نجاهد وتحط علينا بين الناس فى ترك الجهاد ، وعلى أى شيء نجاهد ، وليس لنا أسطول نجاهد فيه ؟ ، فبادره الشيخ قائلا : عندك الأموال الذى تعمر بها الأسطول وطال بينهما الجدل والحوار ، فاحتد الشيخ على السلطان ، وقال له : قد نسيت ياغورى نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان ، أما تذكر حين كنت نصرانيا ، ثم أسروك وباعوك ، ثم من الله عليك بالحرية والإسلام ، ثم صرت سلطانا على الخلق ، وعن قريب تموت ، ويحفرون لك قبرا مظلما ، ثم يدسون أنفك هذا فى التراب ، ثم تبعث عريانا عطشان وجوعان ثم توقف بين يدى الحكم العدل ، الذى لا يظلم مثقال ذرة ، ثم ينادى المنادى : من كان له حق أومظلمة على الغورى فليأت فيأتى خلائق لا يعلم عددها إلا الله تعالى ، فذهل الغورى من كلامه وخرج الشيخ ، فلما أفاق السلطان من تأثره دعا بالشيخ ، فجاء ، فعرض عليه الغورى عشرة آلاف دينار يستعين بها على بناء الحصن الذى بناه على شاطىء مصر عند دمياط فردها الشيخ عليه ، وقال : أنا رجل ذو مال ، ولا أحتاج إلى مساعدة أحد ، ولكن إن كنت أنت محتاجا أقرضتك وصبرت عليك ، فماروى أعز من الشيخ فى ذلك المجلس ، ولا أذل من السلطان فيه .

وهكذا كان أعلام الصوفية ، حتى ليقول ماسينيون : إن رجال المعرفة الصوفية فى الإسلام كانوا دائما النماذج التى تقدم لنا الصور الحية للمفكرين الكبار فى الإسلام .

القسم الأول من الكتاب

الفصل الأول

ماهية التصوف

ماالتصوف ؟ :

التصوف فى حقيقته (١) إيثار وتضحية ، تضحية باللذائذ والشهوات وإيثار لما يبقى على مايفنى ، تضحية بالعاجل وإيثار الآجل ، مجاهدة للنفس، ومغالبة لأهوائها .

هو نزوع فطرى إلى الكمال الإنسانى ، إلى التسامى والمعرفة عن طريق الكشف الروحى ، أو العلم اليقينى ، الناشئين عن الإلهام الإلهى والنظر العقلى والرياضة النفسية وبعض الدلائل الحسية (٢) ؛ والتصوف روح لمجموع حقائق الإسلام من عبادة وإيمان ويقين وعرفان (٣) ، وهو إيثار الحق على رغبات النفس ، يقول الجنيد : « التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به » ؛ ويقول الكرخى : هو الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق ، ويقول أبو الحسن الشـــاذلى : هو تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية .

وسئل أحد الصوفية عن معنى التصوف فقال : « معناه أن العبد إذا تحقق بالعبودية واتصف بشهود حقائق الربوبية صفا من كدر البشرية ، انزل

(١) ٣١ نشأة التصوف ـ عبد الكريم الخطيب ـ العدد ٢٢ من سلسلة الثقافة الإسلامية .

(٢) راجع ص ٩ المدخل إلى التصوف الإسلامى ـ محمو أبو الفيض المنوفى .

(٣) راجع ص ١٠ المرجع السابق .

منازل الحقيقة ، وأخذ بمكارم الشريعة ، فإن فعل فهو الصوفى ، ، والصوفى أحد ثلاثة : ـ كما يقول السرى ـ : واحد لا يطفىء نور ورعه نور معرفته ، وواحد لا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر من الشرع ، وواحد لا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله (١) .

ويقول شاعر الإسلام محمد إقبال(٢) : إن الإسلام يأخذ عند الصوفية طابعا من الجمال والكمال والإنسانية العالية والأخوة العالية لا نجده فى إسلام الفقهاء والمتكلمين .

ويقول الطوسى (٣٧٨ هـ) فى « اللمع » عن الصوفية : إنهم معدن جميع العلوم ، ومحل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة ، وهم مع الله تعالى فى الانتقال من حال إلى حال ، مستجلبين للزيادة (٣) ، وقيل لأبى عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء ما معنى الصوفى ؟ فقال : ليس نعرفه فى شرط العلم ، ولكن نعرف فقيرا مجردا من الأسباب ، كان مع الله عز وجل بلا مكان ، ولا يمنعه الحق من علم كل مكان ، سمى صوفيا (٤) .

ويقول الغزالى فى « المنقذ من الضلال » عن طريق الصوفية : إنها « قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله (٥) ..

---

(١) راجع ص ١٢٨ و ١٢٩ الرسالة القشرية للإمام القشيرى (٣٧٦ - ٤٦٥ هـ) ط القاهرة ، مكتبة القاهرة ، ٤٥ - ٤٨ اللمع للطوسى .

(٢) ص ٩ مقدمة كتاب اللمع للطوسى تحقيق عبد الحليم محمود وطه سرور .

(٣) ص ٤٠ المرجع السابق .

(٤) ٤٦ المرجع نفسه .

(٥) ويقول ابن تيمية فى رسالته عن الصوفية : الصوفى : من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، واستوى عنده الذهب والحجر .

الفرق بين الصوفى والزاهد :

إن الزهد [1] هو أول حركات التصوف فى الإسلام ، وقد انتشرت حركة الزهد فى عصر الرسول وبعده ، وبخاصة بعد ثراء المسلمين وحكمهم للعالم القديم المعروف آنذاك ، وفرق بين التصوف والزهد ، فالتصوف زهد فى الدنيا لكسب رضاء لله ، والزهد بعد عن الدنيا لكسب ثواب الآخرة ؛ والتصوف دخول فى جمال الملأ الأعلى وروحه ورحمته ، والزهد دخول فى مجال التقوى خوفا من عذاب الله ونقمته وجبروته ، والتصوف فلسفة روحية فى الإسلام والزهد منهج عملى من مناهج بعض المسلمين وله نظائر فى الديانات القديمة . . وهناك فروق أخرى لا داعى إليها فى هذا المقام .

تقول رابعة العدوية فى تساؤل ودهشة: « أو لو لم تكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحد ؟ ولم يخشه أحد ؟ » وقال سفيان الثورى لرابعة : « ماحقيقة إيمانك ؟ فقالت: ماعبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته « أكون كالأجير السوء ، عبدته شوقا إليه » ؛ وكل المتصوفة فى هذا رابعة . يقول ابن الفارض :

وعن مذهبى فى الحب مالى مذهب ... وإن ملت يوما عنه فارقت ملتى
ولو خطرت لى فى سواك إرادة ... على خاطرى سهوا قضيت بردتى

ويقول ابن سينا فى « الإشارات » واصفا للعارف الصوفى ، وهو من روائع الكلم فى هذا المقام : العارف ـ خلافا للزاهد والعابد ـ يريد الحق الأول لا لشىء غيره ، ولا يؤثر شيئا على عرفانه ، إنه لايعبده لهدف آخر يرجوه من ورائه ، إنه لايجعل الحق واسطة لأجر يناله أو مثوبة يطمع فيها ، إن الحق غايته ، إنه مبتهج به لقد عرف اللذة الحق وولى وجهه سمتها ، فكان من المستبصرين بهداية القدس ، ولقد أنزل الله الدين هداية ورحمة ، فاستفاد منه بعض الناس الأمن والطمأنينة ، واستفاد منه بعض آخر ـ

---

(١) راجع ٢٥ - ٣٠ المدخل إلى التصوف الإسلامى .

زيادة على ذلك - الأجر الجزيل في الحياة الأخرى ، أما العارفون فقد غمرتهم نعمة الله ، استفادوا من الدين أمنهم وطمأنينتهم في هذه الحياة ، ولن يحرمهم الله مثوبته يوم القيامة ، هذا فضلا عما ينعمون به في حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى من البهجة بالحق ومن الاستمتاع بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ثم يقول ابن سينا : « إن العارف دائما طلق الوجه بسام المحيا ذلك أنه دائماً فرح بالحق ، بل إنه فرح بكل شيء لأنه يرى الحق أينما ولى وجهه ، والناس عنده سواء » . ويقول : « والعارف مستبصر بسر الله في القدر فهو لا يستهويه الغضب عند مشاهدة المنكر كما تعتريه الرحمة ، وإذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصح لا بعنف معير » . ثم يقول : العارف شجاع ، وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت . . ؟ وجواد ، وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل . . ؟ وصفاح ، وكيف لا ونفسه أكبر من أن تجرحها زلة بشر ؟ ونساء للأحقاد ، وكيف وذكره مشغول بالحق . ؟ » . . . ثم يقول :

« إن للعارفين مقامات ودرجات يخصون بها وهم في حياتهم الدنيا . دون غيرهم ، فكأنهم وهم في جلابيب من أبدانهم قد نضوها وتجردوا عنها إلى عالم القدس ، ولهم أمور خفية فيهم وأمور ظاهرة منهم ، يستنكرها من ينكرها ويستكبرها من لا يعرفها » .

الفرق بين الفقه والتصوف :

الفقه علم بأحكام الشريعة ، والتصوف عمل بها ، والفقه من علوم الظاهر والتصوف من علوم الباطن ، ومصادر الفقيه الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وهي وإن كانت مصادر التصوف إلا أنه يستمد مع ذلك من الوجدان والذوق والروح والإلهام مادة فهمه لهذه المصادر بينما يستمدها الفقيه من عقله (١) ، والعمل والعبادة اللذان توجبهما معرفة الأحكام الشرعية هما وقوف

(١) ص ٢٣ المدخل إلى التصوف الإسلامي .

عند حدود الظاهر ، أما العمل والعبادة اللذان يوجبها التصوف فهما لا يقفان عند غاية ولا عند حد .

الفرق بين التصوف والفلسفة :

الفلسفة محاولة لكشف نواميس العلم ولفهم حكمة الله وأسراره فى مختلف جوانب المعرفة ؛ أما التصوف فهو محاولة لكشف حكمة الله فى شتى جوانب الحياة ، وللحياة مع رحمة الله المنبثة فى السماء والأرض ، ولشهود جمال الكون العظيم وجلاله ، وتمتع القلب والروح بلذه المشاهدة للصعود عن طريق ذلك إلى رحاب القدس الأعلى .

إن العقل هو أداة التفكير الفلسفى ، والروح أو القلب هى أداة الفهم الصوفى ، ولذلك كان التصوف فطرة قائمة فى النفس الإنسانية شأنه فى هذا شأن التدين ، إذ كانت نشأتهما واحدة ، وغايتهما واحدة ، وكان كل منهما مكملا للآخر ، فالدين إن خلا من التصوف جفت أصوله ، وذوت أغصانه ، وعطبت ثمرته ، والتصوف بغير دين سحاب جهام لا مطر معه ، وسراب خادع يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

ولا يمكن الوصول إلى مراتب السلوك فى التصوف بالتعليم بل بالذوق والحال كما يقول الإمام الغزالى فى « المنقذ من الضلال » ، يقول حيث فى «المنقذ» فى تصويرا كتسابه لمعرفة طريقة الصوفية « ابتدأت بتفصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل « قوت القلوب » لأبى طالب المكى رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد ، والشبلى ، وأبى يزيد البسطامى ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقتهم بالتعليم ، والسماع ، وظهر لى أن أخص خواصهم لم يمكن الوصول إليه بالتعليم بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات ، فكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد

الشبع ، وأسبابهما ، وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحا . وشبعان . وبين أن يعرف حد السكر وأنه عبارة عن حالة تحصل عن استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معانى الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران ، ومامعه شيء من علمه ، والصاحى يعرف حد السكر وأركانه ، ومامعه من السكر شيء ، والطبيب فى حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة . فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا ، فعلمت يقينا أنهم أرباب أحوال وأصحاب أقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريقة العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعليم ، بل الذوق والسلوك ، وكان قد حصل معى من العلوم التى مارستها ، والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية ، إيمان يقينى بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر ، وكان قد ظهر عندى أنه لامطمع لى فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . والقدر الذى أذكره لينتفع به أنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى وخاصة أن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكم الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم أو يبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا ، وان جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، وأيقنت بحق أنهم الفرقة الناجية ، وماذا يقول القائلون فى طريقة ، طهارتها وهى أول شروطها ، تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم فى الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها

الفناء بالكلية في الله ، وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلهـــا ، وهي على التحقيق أول الطريقة ، وماقبل ذلك كالدهليز للسالك إليه .

ويقول الفيلسوف الشيخ ابن سينا في رياضة الصوفي لنفسه : « ثم إذا بلغت به الإرادة والرياضة إلى حد ما ، عنت له خلسات من اطلاع نور الحق لذيذة كأنها بروق تومض إليه ثم تخمد عنه ، ثم إنها تكثر عليه ، فإذا أمعن في الارتياض فكلما لمح شيئا عاج منه إلى جناب القدس ، فيذكر من أمره أمرا فيتغشاه غاش من النور ، فيكاد يرى الحق في كل شيء ، ثم إنه لتبلغ به الرياضة مبلغا ينقلب له وقته سكينة ، فيعود المخطوف مألوفا ، والوميض شهابا بينا ، وتحصل له معرفة مستقرة كأنها صحبة مستمرة إلى ما وصفه من تدريج المراتب وانتهائها إلى التحول والترقي إلى أن يعبر سره كالمرآة المجلوة يحاذي بها شطر الحق ، وحينئذ تدر عليه اللذات العلا ، ويفرح بنفسه لما يرى بها من أثر الحق ، ويكون له في هذه الرتبة نظر إلى الحق ، ونظر إلى نفسه ، وهو بعد متردد ، ثم إنه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط ، وإنما لحظ نفسه ، من حيث هي لاحظته وهناك يحق الوصول » .

وفي الفرق بين الصوفي والفيلسوف يقول أبو الفيض المنوفي في كتابه « المدخل إلى التصوف الإسلامي (١) » : الفلسفة ـ وعمادها النظر العقلي ـ تصف الحقائق العليا للوجود وصفا ومن بعيد ، لقصور العقل عن الوصول إلى آفاق الحقيقة الكلية التي مفتاحها البصيرة وإن كان قفلها الإدراك وبابها الكائنات .

---

(١) ص ١٢٤ المدخل .

وأما المعرفة القلبية المباشرة التى تتسبب عن نور اشراق يقذفه الله فى قلب من يشاء من عباده فسبيلها الشهود بعلم اليقين أو بعينه أو بحقه ، وشتان بين من وقف من بعيد ليصف بيتا ويعد غرفه ويذكر منافعه ومرافقه بمجرد اللقانة والتخمين الذهنى ، وبين من دخل البيت وجاس خلاله وشاهد سائر نواحيه وحجراته ، ثم نزل ليصف مارأى للناس ؛ فأى المعرفتين أوضح ؟ وأيهما أصدق فى الخبر ؟ أمعرفة من وقف فى الطريق ينظر ويخمن معتمدا على مجرد الذكاء ، أم معرفة من دخل البيت وجال خلال محتوياته ومنافعه وعرف بالشهود لا بالظن حقيقة أمره وبيان مايحتويه ؟

فالعارف الصوفى تشرق له حكمة الحق فى الكائنات فيؤمن مباشرة بوجود إله حكيم ، ثم يستقرىء وحدات الكائنات كما يفعل الفيلسوف والعالم سواسية طلبا لزيادة الإيمان وتنمية اليقين بربه ومبدعه ليتقرب إليه بالعلم ثم بالعمل ثم بالشكر والعبادة .

وأما الفيلسوف فتلمع له بوارق نور الحق فتشغل ذهنه وعقله فيبدأ فى طلب المعرفة بالعلة ، علة ذلك البرق الإدراكى ، ثم يأخذ فى تصفح الكائنات واستقراء وحداتها مستدلا على العلة بمعلولها وعلى الصانع بالمصنوع ، هذا إن لم يضل الطريق فيؤله الفكر نفسه ـ معتبرا أنه العلة التى يبحث عنها ـ أو ظواهر الأشياء معتبرا أن المادة الطبيعية هى العلة التى يبحث عنها .

متى نشأت كلمتى تصوف وصوفى فى الإسلام ؟

ورد عن الحسن البصرى : أدركنا سبعين بدريا كان لباسهم الصوف[1]

---

(١) نشر المحاسن الغالية ٢ : ٣٤٣

وورد عنه كذلك : رأيت صوفيا فى الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال : يكفينى ما معى[١] .

وقد انفرد المراعون أنفاسهم مع الله باسم التصوف فى عصر الإمام أحمد بن حنبل قبل المائتين من الهجرة[٢] . وكانوا من قبل يسمون القراء والنساك والزهاد[٣] ، وأهل الشام[٤] يسمون الصوفية فقراء ، ويقولون : قد سماهم الله تعالى فقراء فقال : للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم[٥] ، وقال : للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله[٦] .

ولمساور الوراق الشاعر الكوفى (من شعراء القرن الثانى الهجرى) :

تصوف كى يقال له أمين ومايعنى التصوف والأمانة[٧]

ويقول سفيان الثورى (٩٧ - ١٦١ هـ): لولا أبو هاشم الصوفى ماعرفت دقائق الرياء[٨] وكان الثورى يسمى أمير المؤمنين فى الحديث ، وكان يقول : ازهد فى الدنيا ونم ، لا لك ولا عليك ، ويقول : الزهد فى الدنيا هو قصر الأمل ليس بأكل الخشن ولا بلبس الغليظ والعباء[٩] .

---

(١) المرجع نفسه ٢ : ٣٤٥ ، ٤٢ اللمع
(٢) الرسالة القشيرية للإمام القشيرى
(٣) راجع البيان والتبيين للجاحظ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة
(٤) ٤٦ اللمع للسراج الطوسى
(٥) ٢٢ الحشر : ٨
(٦) البقرة ٢٧٥
(٧) ٣ : ٢١٧ العقد الفريد - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر
(٨) ٤٢ اللمع .
(٩) ١ : ٤٠ - ٤٣ الطبقات الكبرى للشعرانى ط صبيح - القاهرة .

ويقال (١) إن أول من سمى بالصوفى أبو هاشم الصوفى ، وأول من تكلم ببغداد فى مذهب الصوفية أبو حمزة الصوفى (٢) ، وكان (٣) ابن حنبل يقول لأبى حمزة فى المسائل : ماتقول فيها ياصوفى ؟

والجنيد (٢٩٧ هـ) كان يقول : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات (٤) ، ويقول : علمنا هذا (أى التصوف) مقيد بحديث رسول الله (٤) ، ويقول (٤) : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، ويقول أيضا (٤) مذهبنا (٥) هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة .

ومن ذلك نعلم أن اصطلاح التصوف و « الصوفى » ظهر فى القرن الثانى (٦) الهجرى .

يقول الطوسى (٣٧٨ هـ) صاحب اللمع : أما قول القائل : إنه ـ أى التصوف ـ اسم محدث أحدثه البغداديون، فمحال لأن فى وقت الحسن البصرى رحمه الله كان يعرف هذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) .. ويقول ابن تيمية فى رسالته عن الصوفية (٨) : إن

---

(١) محاضرة الأوائل للإمام السيوطى .
(٢) أبو حمزة هو أبو حمزة البغدادى من أقران الجنيد والخراز توفى عام ٢٨٩ هـ ، وراجع عنه ٤٩٥ اللمع و ٢٤ الرسالة القشيرية .
(٣) ٢٤ الرسالة القشيرية ، صـ ٤ الطبقات الكبرى للشعرانى .
(٤) ١٩ المرجع نفسه .
(٥) يريد مذهب التصوف .
(٦) صـ ١٠ منهاج الصوفية للطاوى .
(٧) ٤٢ اللمع .
(٨) صـ ١٧

منشأ التصوف كان من البصرة ، من أجل أن الحسن البصرى كان من أوائل الصوفية فى الإسلام لأنه كان مؤسس مدرسة بصرية فى التصوف [١] ، وبفضل الحسن البصرى استقرت زعامة التصوف فى البصرة ، وقامت فى بغداد مدرسة صوفية أستاذها التابعى الجليل سعيد بن المسيب ومن تلاميذه أبو حمزة الصوفى [٢] .

قواعد التصوف :

ينبنى التصوف على خمس قواعد : وتلك القواعد ماشية لتعاليم الدين مسايرة للشريعة من حيث أحكامها الباطنة ونواميسها الخفية — وتلك القواعد هى :

١ — صفاء النفس ومحاسبتها .

٢ — قصد وجه الله .

٣ — التمسك بالفقر والافتقار .

٤ — توطين القلب على الرحمة والمحبة .

٥ — التجمل بمكارم الأخلاق التى بعث الله بها النبى لتمامها .

١ — فالقاعدة الأولى : معناها : أن كل من أراد أن يدخل فى سلك المقربين يعد الجواب لسؤال الحق تعالى ، وذلك أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله ويزن أعماله قبل أن توزن بقسطاس الآخرة ويصفى نفسه من شوائبها ووساوسها ، قال عليه السلام : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزن عليكم » ، وقال تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) .

---

(١) ٢٨ المدخل إلى التصوف الإسلامى .

(٢) ٣٩ منهاج الصوفية .

٢ — والقاعدة الثانية : معناها أن المتصوف لابد أن يقصد وجه ربه فى جميع أقواله وأفعاله غاسلا قلبه بالإخلاص لوجه الله. لامخافة المخلوقات وهيبة الرؤساء ، فيصير بذلك لايتكلم ولا يفعل إلا عن تثبت واطمئنان وتصبح أعماله خالصة لامخالطة فيها ولا رياء ، وحسبنا دليلا على ذلك قول الله لنبيه « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » وقوله أيضا : ومالأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى .

٣ — والقاعدة الثالثة : معناها الزهد فى الدنيا والقناعة فى متاعها حرمانا للنفس فان التمسك بالفقر دليل التقشف الذى هو الآلة القاطعة لحبل الوصال بين العبد والشيطان فتتأهل النفس بالعبادة الخالصة والمفاجأة الصادقة وعدم العلو والفساد ، والافتقار هو تجرد المرء من زينة الحياة لينقطع لتقوى الله بخشية وخشوع مظهرا الافتقار إلى الله وأنه لاحول له ولا طول إلا به . طالبا منه التكرم عليه بالامداد والتجليات وذلك هو منتهى الاقرار بالعبودية التى هى مركز التصوف وعقيدة الايمان، ألا أن الله هو العلى القدير الفعال لما يريد .

٤ — والقاعدة الرابعة : معناها أنه يجب على كل صوفى أن يلزم قلبه محبة المسلمين ورحمتهم ويعطيهم حق الاسلام من التعظيم والتوقير . فإن رسخ فى هذه القاعدة واستقام فى التدرب عليها، أفاض الله عليه أنوار الرحمة وأذاقه حلاوة الرضا وألبسه ثوب القبول : فينال مما ورثه النبيون من المحبة والرضا حظا وفيراً .

قال تعالى فى حق الرسول : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ، وقال عليه السلام لصديقه أبى بكر : (لاتحقر أحداً من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير) .

٥ — القاعدة الخامسة : هى زبدة الدين وحقيقة أخلاق الصوفيين

ومعناها أن يكون العبد هينا لينا مع أهل بيته وعشيرته وجميع المسلمين، قال عليه السلام (أهل الجنة كل هين لين سهل قريب ، وأهل النار كل شديد قبعثرى) قالوا وما القبعثرى ؟ قال الشديد على الأهل والصاحب والعشير ، وقال تعالى « وقولوا للناس حسنا » إذ أن الله تعالى يعامل عبده بوصفه وخلقه الذى يعامل الناس به ، ولذلك يقول تعالى « واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه » ، وفى الحديث القدسى عنه عز وجل : « يقول الله للعبد يوم القيامة : جعت فلم تطعمنى واستسقيتك فلم تسقنى ومرضت فلم تعدنى ـ فيقول العبد : كيف تجوع وأنت رب العالمين؟وكيف تمرض وأنت رب العالمين،وكيف تسق وأنت رب العالمين ؟ فيقول له سبحانه وتعالى مفسرا لذلك ـ أما إنه مرض عبدى فلان فلو عدته لوجدتنى عنده ، وجاع عبدى فلان فلو أطعمته لوجدت ذلك عندى ، واستسقاك عبدى فلان فلو سقيته لوجدت ذلك عندى » ذلك هو الحديث القدسى الذى جمع محاسن الأخلاق وجميل الصفات بين النـاس ، وهو القانون الإلهى الذى سلك منهاجه رجال التصوف فى حياتهم الدنيوية العملية ـ فمن رسخت قدمه منهم فى هذا المقام صارت أحواله ومعاملاته مع الرب فى كل شىء فلا يراقب غير الله كل سكناته وحركاته ، قال تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) ، وقال عليه السـلام : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

آداب التصوف :

أدب التصوف أدب إلهى سام وهو مدد ألهمه الله للمتصوفين فانتهلوه بكل ظاهره وباطنه ، منهاجهم فى ذلك قوله عليه السلام «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» ، فالصوفية تولاهم الله برعايته فأدبهم وهذب ظاهرهم وأصلح باطنهم ، حتى ظهر كل واحد منهم صوفيا أديبا ، تكاملت أخلاقه بتكامل أدبه

لأن الآداب منبهة للسجايا الصالحة والمنح الإلهية ، ولما هيأ الله تعالى بواطن الصوفية لمناجاته وكملها بالسجايا الطاهرة توصلوا بحسن الممارسة والرياضة إلى استخراج مافى النفوس من الشوائب وتهيئتها إلى معرفة الحضرة القدسية ، فصاروا مؤدبين مهذبين كاملين لله وبالله وفى الله ـ قال ابن عطاء : « النفس مجبولة على سوء الأدب والعبد مأمور بملازمة الأدب ، وقال عبدالله ابن المبارك : أدب الخدمة أعز من الخدمة . . وأهم آداب التصوف هى : ترك الهذيان وقبيح الكلام ـ هجر الأوغاد والسفهاء ـ الحلم والسماحة وقت الغضب ـ ملازمة مجالس المعرفة بين الأبرار والأخيار ـ ترك مالا يعنى والعمل بما يعنى ـ لين الجانب وصلة الرحم وإفشاء السلام ـ إتحاف الناس ومعاونتهم فى الشدائد محبة فى الله ـ الصفح وقبول العذر والتذلل فى العبادة خوفا من الله وطمعا فى رضاه ـ التندم والتحذر والتوقر والتبصر ـ التكرم والصمت والقناعة ... تلك هى أهم آداب التصوف فمن تخلق بها صار صوفيا صادقا وثبت إيمانه وتمحص قلبه لشهود حضرة ربه .

وهذه كلها آداب عالية وأخلاق سامية ، وكيف لا : وتلك آداب الله لعبده وإمداده لمن أحبه . فجدير بمن كانت منزلته هذه من الله أن تصوم جوارحه لله وتقوم نفسه فى عبادة الله ، وتهيم روحه فى رضا الله ويتأدب فى معاملته لله حتى يحظى بوصل الإله ، فما آداب التصوف إلا مستمدة من آداب السنة ، وتتحقق من أخلاق الإسلام وبفضل من الله وهمة من العبد فى تبتله إلى مولاه . وتلك الآداب تقع فى حق بعض الأشخاص من غير زيادة ممارسة وقوة رياضة لقوة ماأودعه الله من آدابه فى غريزة من اجتباه إليه فيفطر على آداب الله ، ويتربى على آداب الله ، وذلك فضل من الله يؤتيه لمن يشاء وهو بما يفعله حكيم عليم .

إن منزلة الأدب عند الصوفية كمنزلة الرأس من الجسد وإنه لن يحظى برضا الله أو بقرب الإله إلا من كان الأدب منهاجه الذى يسير عليه

فى عبادته ليصل إلى حقيقة القرب ، قال تعالى فى وصفهم : « خاشعين لله »
وقال عليه السلام فى بيان فضل الأدب : لأن يؤدب الرجل ولده خير له من
أن يتصدق بصاع .

صفـات التصوف :

وأهم صفات التصوف ما يأتى :

الإخلاص وطهارة القلب ، قال تعالى (مخلصين له الدين حنفاء) .

الخشية من الله - قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

الخشوع لله - قال تعالى (خاشعين لله) ... والتواضع للمخلوقات - قال
تعالى (واخفض جناحك للمؤمنين) .

حسن الخلق - قال تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم) .

الزهد فى الحياة قال تعالى (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير) .

مراتب التصوف :

التصوف ثلاث درجات :

١ — الأولى : هى درجة المريد الطالب كما أنها أول خطوة فى التصوف
وصاحبها صاحب وقت يجد فى العبادة لطلب مراده ، ومقامه المجاهدات وتجرع
المرارات ، ولذا قيل أول التصوف علم .

٢ — والثانية : هى وسط التصوف وتسمى درجة المتوسط السالك
ومنتهلها صاحب حال وتلوين لانتقاله كل آونة من حال إلى حال ومن درجة
إلى درجة ، وهو مطالب بآداب المنازل والزيادة فى العبادة ومقامه هو ركوب
الأهوال فى طلب المراد ومراعاة الصدق فى الأحوال واستعمال الادب
وفناء النفس فى العبادات وتلك أشق درجات التصوف فمن رسخ قدمه فيها

فقد وصل حقيقة المقامات وتلك الدرجة هى المعبر عنها بأن أوسط التصوف عمل .

٣ — والثالثة : وهى أعلى درجات التصوف ومنتهى أعمال الصوفية وتسمى درجة المنتهى وصاحبها ذو نفس وهمة وفضل ، قد جاوز المقامات وصار فى محل التمكين لاتؤثر فيه الأهوال ومقامه الصحو والإجابة للحق، استوت فى حقه الشدة والرخاء والمنع والعطاء ، باطنه مع الحق وظاهره مع الخلق ، فمن بلغ تلك الدرجة فقد بلغ الكمال وصار من أهل القرب والمكاشفات ، وقد قيل : نهاية التصوف موهبة من الله .

تلك هى درجات التصوف ، ومن ذلك كله نعرف أن التصوف مرماه طهارة القلب والتوبة إلى الله ومحبة المخلوقات وأن رجاله من حماة الدين وأنصار الإسلام وأعوان الحق وورثة الأنبياء . وهم الذين قال الله فيهم: « إن الذين قالوا ربنـــا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » ، « أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم المفلحون » .

أقسام التصوف الإسلامى :

ينقسم (١) التصوف الإسلامى إلى قسمين : قسم يتعلق بالتربية وتهذيب الروح ونبل الخلق والتحلى بالفضائل والكمالات الأدبية ، وهو مااصطلح على تسميته بعلم المعاملة .

وقسم يتعلق بالرياضة الروحية والعبادة والمحبة وماينطوى تحت العبادة والمحبة من نور وإشراق وإلهام وفيض .

---

(١) ١ : ٥٣ أعلام التصوف الإسلامى .

والقسم الأول مادة دسمة لرواد الأخلاق ، ومادة دسمة لعالم النفس . بل إن الصوفية هم أساتذة علم النفس فى العالم ، فقد تعمقوا فى أغوارها ومساربها ، وأحاطوا بأهوائها ودوافعها ونوازعها . وتفننوا فى ذلك حتى وصلوا إلى كشوف نفسية عالمية .

وإن كانت أوربا قد أضافت حديثاً إلى علم النفس ما أسموه بمركب النقص ، وشرحوا على ضوئه الكثير من العقد النفسية . فقد اكتشف الصوفية فى نفوسهم شيئاً أروع من هذا ، اكتشفوا مركب الكمال ، فتوصلوا به إلى السماء وإلى الإشراق والنور .

وأما القسم الثانى : وهو قسم العبادة والفيض والمحبة ، فأول شروطه : معرفة الكتاب والسنة معرفة عليا ، ويسمى هذا القسم بالطريق . وينقسم إلى أربع مراحل :

١ — الأولى : مرحلة العمل الظاهر ، أى مرحلة العبادة والإعراض عن الدنيا وزخرفها وزينتها ، والزهد فى شهواتها وأهوائها ، والانفراد والعكوف على الذكر والاستغفار مع تأدية الفرائض والنوافل والتطوعات.

٢ — والثانية : مرحلة العمل الباطنى أو المراقبة الداخلية ، بتزكية الأخلاق ، وتطهير القلب ، وتصفية الروح ومحاربة النفس ومراقبتها ، والتجمل بالأخلاق الزكية والصفات النبيلة والشمائل المحمدية .

٣ — والثالثة : مرحلة الرياضة والمجاهدة التى يقول فيها الرسول صلوات الله عليه : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ، وبتلك المجاهدة العظمى يقوى سلطان الروح وتتحلل النفس من الأدران الأرضية فتسمو وتزكو وتصفو صفاء ربانياً ، حتى تنطبع فيها حقائق العالم وأسراره ويتنزل فى القلب نور إلهى ينكشف به جمال العالم وجلاله ودقائقه وأسراره فيرق الحس وينتبه الشعور وتستيقظ الأحاسيس ، فتكون حركة حياة كبرى

فى المشاعر عامة ؛ وتشمر تلك المشاعر بلذة عليا وعلوم نورانية تقوى فى النفس حتى تكون صفة لازمة لها ، ويتوالى الكشف للنفس ، وتزاح عنها الحجب شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الرضا والأنوار العلى .

٤ — أما المرحلة الرابعة : فهى مرحلة الفناء الكامل ، وصول النفس إلى مرتبة شهود الحق بالحق ، وانكشاف ووضوح فى رؤية العوالم الخفية ، والأسرار الربانية ، وتوالى الأنوار والكشف ، ثم اللذة الروحانية بالأنس ، والسر الزكى فى الجلوة والحضرة الإلهية . وتلك المرحلة لا تكتب ولا توصف لأنها خارجة عن نطاق التصور العقلى والتخيل الإنسانى ، فهناك يشاهد المحب بعين القلب : مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

علم التصوف :

أما علم التصوف فقد ظهر فى القرن الثالث الهجرى على أيدى الجنيد ومدرسته ، وإن كان التصوف نفسه قد ظهر فى القرن الثانى ؛ ويقول ابن خلدون فى علم التصوف : هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ... وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة ، وكبارها: من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ـ طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور : من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى ومابعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا — اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة (١) .

---

(١) صـ ٤٦٧ مقدمة ابن خلدون .

ويقول أبو طالب المكى فى «قوت القلوب»: هذا العلم (التصوف) ثمرة قول لا إله إلا الله، فهو حقيقة التوحيد والتنزيه ولا يؤتيه ويعلمه إلا أولياءه المتقين المفلحين وعباده الصالحين وهم أهل القلوب السليمة الطاهرة والجوارح الخاشعة الذاكرة والألباب الراجحة الفاخرة، وهم ثلاث طبقات: من المقربين المحبوبين والمتقربين المحبين، ثم أهل اليمين وهم أهل الله، وأهل العلم بالله وأهل الحب فى الله ولله وأهل الخوف من الله، استحضرهم فحضروا واستحفظهم سره فحفظوا، وأشهدهم على وجوده من قبل خلقهم فشهدوا، فهم الأدلة منه عليه، وهو دليلهم إليه، وهم جامعو العبادة به عليه وهم الربانيون من العلماء أئمة المتقين وأركان الهدى والدين، ألو القوة فى الله والتمكين، كشف لهم عن أسرار الكتاب الكريم، وهداهم إلى الصراط المستقيم، وهم المفردون المقصودون بالسبق والمزيد، فضلهم على من سواهم من المؤمنين كالقراء والعباد وأهل المجاهدة والزهد، واختارهم لنفسه، واختصهم بأنهم خصائص عباده».

اشتقاق كلمتى تصوف وصوفى :

والآن ماهو أصل كلمة تصوف وصوفى الذى نقلتا منه إلى المعنى الاصطلاحى المقصود وهو الطاعة والمحبة الإلهية والشوق الخالد ؟

يقال الرجل صوفى وللجماعة صوفية، ومن يدرك هذه المنزلة الروحية يقال له : متصوف، وللجماعة : المتصوفة [1]، وتصوف إذا سلك مسالك الصوفية .

ويقول الإمام القشيرى : إنه ليس يشهد لهذا الاسم - صوفى - من حيث العربية قياس، ولا اشتقاق والأظهر فيه أنه كاللقب [1] .

---

(١) ١٢٦ الرسالة القشيرية

إن اسم الصوفى حادث بعد الإسلام كما سبق ، وليس من ألفاظ الجاهلية . ولاريب أن الرواية التى تقول إنه كانت مكة قبل الاسلام « قد خلت فى وقت من الأوقات من الناس ، حتى كان لا يطوف بالبيت أحد ، وكان يجىء من بلد بعيد رجل صوفى فيطوف بالبيت وينصرف » ، إن هذه الرواية (١) ولا ريب ضعيفة ولا دليل عليها ، فمن أين إذا أخذت كلمة « صوفى » ؟

هنا يقع الاختلاف ، وتضطرب الآراء :

١ — فكثير من المستشرقين يذهبون إلى أن كلمة صوفى مأخوذة من كلمة « سوفيا » اليونانية بمعنى الحكمة ، وأربابها هم الحكماء (٢) ، وعندما فلسفت العرب عباداتهم حرفوا تلك الكلمة ، وأطلقوها على رجال التعبد والفلسفة الروحية ، وممن ذهب إلى ذلك المستشرق ماركس .

وقريب من هذا مايقوله بعض آخر من المستشرقين من أن صوفى مأخوذة من كلمة « ثيو صوفى » بمعنى الإشراق أو محب الحكمة الإلهية، وممن ذهب إلى ذلك نولدكه ، ويذهب فون هامر إلى أنها من كلمة سوفى بمعنى الحكيم .

وهذا كله وهم ولا دليل عليه ، بل يقول الدكتور زكى مبارك : لم لا نذهب إلى عكس ذلك ؟ وأن كلمة « سوفيا » مأخوذة من كلمة « صوفى » التى عرفها العرب فى جاهليتهم كما يرى الدكتور .

---

(١) ص ٤٢ و ٤٣ اللمع ، ٣ : ٢٢٩ زهر الآداب تحقيق زكى مبارك — طبعة أولى .

(٢) وقد أخذت كلمة فيلسوف بمعنى محب الحكمة من كلمة سوفيا اليونانية بمعنى الحكمة أيضا .

نحن لانرى صحة الزعم بأن لغة أخذت من لغة إلا بدليل قوى ، وبخاصة إذا كانت اللغتان ليس بينهما صلة تاريخية ، من جوار أو تبادل ثقافى أو اختلاط سياسى .

وممن ذهب إلى ذلك الرأى أبو الريحان البيرونى (٤٤٠ هـ) ، والمستشرق فون هامر ، ومحمد لطفى جمعة ، وعبد العزيز الاسلامبولى صاحب مجلة المعرفة (توفى عام ١٩٦٤)(١) ، ويذهب فون هامر الألمانى إلى أنها مأخوذة من سوفى بمعنى الحكيم .

٢ — ورأى يقول إن كلمة «صوفى» نسبة إلى «صوفة» ، وهو رجل زاهد متعبد فى الجاهلية كان قد انقطع إلى الله وعبادته وطاعته عند البيت الحرام ، واسمه الغوث بن مر ، وكان إليه أمر الإجازة فى الحج ، وقيل لأحفاده من بعده «صوفة» أيضا ، فنسب الصوفية إليه لمشابهتهم إياه فى الانقطاع إلى الله وعبادته ، قال ابن الجوزى : سئل وليد بن القاسم إلى أى شيء ينتسب الصوفى ؟ فقال : كان قوم فى الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى الله وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم فهم الصوفية ، وأشار إلى هذا كذلك الزمخشرى فى أساس البلاغة والفيروز أبادى صاحب القاموس المحيط ، وبعض المستشرقين .

وهذا الرأى يدل على أن النسك كان مذهبا معروفا فى الجاهلية ، ولفظة الديان العربية معناها المتنسك فى الدين ، ومثلها الربانى وهى لفظة قديمة عرفتها العربية والسريانية وظلت من ألفاظ التمجيد ، ووصف البويطى صاحب الشافعى بأنه كان إماما ربانيا كثير العبادة والزهد(٢) ، والربانيون

---

(١) راجع رأيه فى مجلة المعرفة عدد أغسطس ١٩٣١ ، ورأى محمد لطفى جمعة فى مجلة المعرفة عدد ديسمبر ١٩٣١ ، وراجع ١ : ٦٧ التصوف الإسلامى لزكى مبارك

(٢) ٢ : ٣١٢ معجم البلدان .

فوق الأحبار (١) ، وفى الجاهلية نشأت طبقة المتحنفين ، ومنهم : ورقة بن نوفل ، وطبقته .

ويغالى الدكتور زكى مبارك فى ذلك فيقول إنه لايستبعد أن يكون التصوف قد عرف فى الجاهلية باسمه ورسمه، ثم كانت له رجعة فى الإسلام (٢) وذلك وهم ولا دليل عليه . .

٣ — ورأى ثالث يذهب إلى أن كلمة صوفى مأخوذة من الصفاء، ويجعلون لها لفظة من نوعها وهى صوفى فعلا مبنيا للمجهول من «صافى» المأخوذة من الصفاء ، قال أبو الفتح البستى :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا ... فيه وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفى حتى لقب الصوفى

وقال بعض الصوفيين :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ... ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ... ولا اضطراب كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر ... وتتبع الحق والقرآن والدينا
وأن ترى خاشعاً لله مكتئبا ... على ذنوبك طول الدهر محزونا

وقد سخر أبو العلاء المعرى منهم فقال :

صوفية مارضوا بالصوف نسبتهم ... حتى ادعوا أنهم من طاعة صوفوا (٣)

وقد استبعد الإمام القشيرى ذلك ، وقال : إن اشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة (٤) .

---

(١) ٢ : ١٢ قوت القلوب
(٢) ١ : ٥٤ التصوف الاسلامى
(٣) اللزوميات ٢ : ١٠٥
(٤) ١٢٦ الرسالة القشيرية

وقريب من هذا الرأى ماحكاه الطوسى فى اللمع ، قال : صوفى كان فى الأصل صفوى (أى نسبة إلى الصفاء) فاستثقل ذلك فقيل صوفى(١) .

٤ — وفريق يقول إن الكلمة مأخوذة من الصف فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى(٢) ، والمعنى صحيح ولكن اللغة لاتساعد على ذلك(٢) .

٥ — وآخرون يقولون أن الكلمة نسبة إلى أهل الصفة ، الذين كانوا يلازمون صفة مسجد رسول الله(٣) .

وأهل الصفة فريق من فقراء المهاجرين والأنصار ليس لهم متاع ولا مال فرغت أيديهم من كل شىء ، وامتلأت قلوبهم بهدى الله ، وقد بنى لهم النبى صلى الله عليه وسلم صفة فى مؤخرة مسجده بالمدينة ليقيموا بها فانقطعوا فى صفتهم إلى الله يسبحون بالغداة والعشى ، وعكفوا على العبادة بشوق ولهفة ولذة واتجهوا وجهة روحية ملائكية . يصفهم أبو نعيم الأصفهانى فيقول(٤) : هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شىء من العروض ، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض ، وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء لايأوون إلى أهل أومال ، ولا تلهيهم عن ذكر الله تعالى تجارة ولا مال ، لم يحزنوا على مافاتهم من الدنيا ، ولم يفرحوا إلا بما أيدوا به من العقبى(٥) .

هؤلاء هم أهل الصفة الذين أمر الله نبيه بأن يصبر نفسه معهم ولا تعد عيناه عنهم تريد زينة الحياة الدنيا . «واصبر نفسك مع الذين يدعون

---

(١) ٤٦ اللمع ، وراجع مجلة المعرفة عدد يونيو ١٩٣١ من مقال الأستاذ مصطفى عبد الرازق عن التصوف واشتقاق الكلمة (٢) ١٢٦ الرسالة القشيرية

(٣) راجع ص ٧ - ١٨ صفوة التصوف ط القاهرة ١٩٥٠

(٤) حلية الأولياء لأبى نعيم (٥) وكانوا نحو أربعمائة من فقراء المهاجرين..

٢١ التصوف لعمر فروخ ، ١ : ٢٠٤ عوارف المعارف

ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه . ولا تعد عيناك عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا » ، وأهل الصفة هم الرعيل الأول من رجال التصوف . فقد كانت حياتهم التعبدية الخالصة ، هى المثل الأعلى الذى استهدفه رجال التصوف فى العصور الإسلامية المتتابعة .

وعندما يخاطب الله عز وجل رسوله الكريم بقوله تعالى : « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا » أى انقطع إليه انقطاعا كاملا ، وبقوله : « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين » ، وبقوله تعالى فى كتابه الحكيم : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » أى اعبد الخالق العظيم ، اعبده دائما أبداً بالغدو والآصال ، اعبده فى الجهر والسر تضرعا وخيفة ، ولا تكن من الغافلين عن ذكره ، المعرضين عن طاعته .

فإن الصوفية وأولهم أهل الصفة [1] قد اتخذوا من ذلك الناموس الإلهى العظيم منهاجا لهم فى الحياة .

٦ — وفريق يجعلون الصوفى نسبة إلى الصوف لأنه كان لباس الزهاد والنساك والعباد ولباس الرسل والأنبياء ، ولباس أهل الخشونة والفقر والشظف وأغلبهم من الواصلين إلى الله ، وهو كذلك لباس رجال الدين فى المسيحية واليهودية من الأحبار والرهبان ، ممن كانوا يلبسون المسوح [2] ، وقد وردت نصوص كثيرة فى ذلك ، ورد أن رسول الله كان يلبس الصوف ، وفى مرثية عمر لرسول الله [3] : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لقد والله

---

(١) فى اللمع ص ٤٧ : الصوفية بقية من بقايا أهل الصفة .

(٢) جمع مسح مثل رفد وهو الثوب الأسود من الصوف يلبسه الراهب شعارا له .

(٣) ١ : ٣٢ الإحياء للغزالى .

جالستنا ونكحت إلينا وواكلتنا ولبست الصوف . وورد[١] أن الرسول صلى الله عليه وسلم أقبل على أهل الصفة ، فواساهم ولم يكن عندهم غير جباب الصوف . وعن الحسن البصرى : لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف[٢] ، وعن الرسول صلى الله عليه وسلم أن كليم الله تعالى كان عليه يوم كلمه الله جبة من الصوف ، وورد أن عيسى كذلك كان يلبس الصوف[٣] ، واستمر لبس الصوف كناية عن الشظف والحرمان والفقر ، وعن التصوف والانقطاع إلى الله والتبتل فى عبادته ، حتى قال أبو تمام :

كانوا برود زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا[٤]

ومن كلام ابن الجوزى : صوف قلبك لا جسمك ، وأصلح نيتك لا مرقعتك[٥] .

وسئل أبو على الروزبارى[٦] : من الصوفى ؟ فقال : من لبس الصوف على الصفا .

ويتردد زكى مبارك فى أن فى لبس الصوف فى الإسلام رجعة إلى التقاليد المسيحية[٧] ، وفى موضع آخر من كتابه[٨] يقول : إن الصوفية يسايرون

---

(١) ١ : ٣٤٥ حلية الأولياء .
(٢) ٢ : ٣٤٣ نشر المحاسن الغالية .
(٣) ١ : ٥٤ التصوف الإسلامى .
(٤) راجع مجلة المعرفة ـ السنة الأولى ص ٧٨٣ من مقال لمرجليوث .
(٥) ١٩٥ تلبيس إبليس لابن الجوزى .
(٦) ١ : ٣٣١ تاريخ بغداد .
(٧) ١ : ٦٥ التصوف الإسلامى .
(٨) ١ : ٣١٦ المرجع نفسه .

المسيح فى مذاهبه الروحية ويلبسون الصوف متابعة للرهبان . ويستشهد ببيت جاء فى « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار » (١) وهو :

ليس التصوف أن يلاقيك الفتى وعليه من نسج المسيح مرقع

وذلك خطأ فى الاستنباط ، وسنعود إليه بعد قليل .

وفى تأييد نسبة الصوفى إلى الصوف يقول الطوسى فى اللمع : التصوف اسم وقع على ظاهر اللبسة (٢) .

ويستضعف الألوسى هذا الرأى (٣) .

وقد عاب الصوفية الصادقون : أن يكون الصوف مظهرا وستاراً تتقنع به القلوب . قال الشبلى : كان الزهد فى بواطن القلوب فصار فى ظواهر الثياب . كان الزهد حرفة فصار اليوم خرقة . ويحك ! صوف قلبك لا جسمك وأصلح نيتك لا مرقعتك . وقال الجنيد : إذا رأيت الصوفى يعنى بظاهره فاعلم أن باطنه خراب والظاهر هو خشونة الثوب . وقيل لأبى الحسن بن سمنون : أيها الشيخ ، أنت تدعو الناس إلى الله والإعراض عن الدنيا ، وتلبس أحسن الثياب ، وتأكل أطيب الطعام فكيف هذا ؟ فقال : كل ما يصلحك لله فافعله ، إذا صلح حالك مع الله بلبس لين الثاب وأكل أطيب الطعام فلا يضرك . ودخل أبو محمد بن أخى معروف الكرخى على أبى الحسن بن بشار وعليه جبة صوف . فقال له أبو الحسن : يا أبا محمد صوفت قلبك أو جسمك ؟ صوف قلبك .

٧ — أما الصفوة الثقات من المؤرخين الصوفيين ، فلم يعللوا تلك

---

(١) ص ٢ : ٢٥٨ محاضرة الابرار .

(٢) ٤٧ اللمع للطوسى .

(٣) ١٠١ الفيض الوارد .

التسمية ولم يتكلفوا لها ماتكلف غيرهم من اصطناع وجعلوها لقبا أو كاللقب ، فقال القشيرى فى رسالته : إن المسلمين فى حياة الرسول وبعده كانوا يتشرفون باسم صحابى ، ثم سمى من بعدهم بالتابعين ، ثم قيل أتباع التابعين . ثم ظهرت البدع وتعـــددت النحل فانفرد خواص أهل السنة والمراعون أنفاسهم مع الله الحافظون قلوبهم باسم التصوف فى عصر الإمام أحمد بن حنبل قبل المائتين من الهجرة .

وقال الإمام الطوسى فى اللمع : فإن سألنى سائل ، قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث ونسبت الفقهاء إلى الفقه ، وهكذا ، فلم قلت الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا علم ؟ قلت لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلوم دون نوع ؛ لأنهم معدن جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة ... ويقول ابن خلدون فى مقدمته : هـذا علم من العلوم الشرعية . وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والاعراض عن زخرف الحياة وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف ، ولما نشأ الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على الله باسم الصوفية .

ويقول أبو نعيم فى حلية الأولياء : إن كلام المتصوفة يشتمل على ثلاثة أنواع : فأولها إشاراتهم إلى التوحيد ، والثانى كلامهم فى المراد ومراتبه ، والثالث فى المريد وأحواله (١) .

ويقول الشرنوبى (٢) : طريق الصوفية هى طريق الأبرار ولم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية : وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها . فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى ومابعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية ، فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء فى الفقه وأصوله والتوحيد والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطائفة فى طريقتهم . فمنهم من كتب فى أحكام الورع ومحاسبة النفس فى الأخذ والترك ، ومنهم من كتب فى آداب الطريق ومنهم من جمع بين ذلك ، وهذا العلم هو علم الوراثة المشار إليه بخبر « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » .

ويسمى علم التصوف علم الحكمة وعلم الباطن ، وهو علم معرفة الله معرفة توحيدية خالصة :

٨ — وقيل إن كلمة « الصوفى » ليست سوى مجموع أحرف رمزية تعنى « الحكيم الإلهى (٣) » .

ويجعل الشيخ حسن رضوان فى منظومته الكبرى التى جمعها فى كتابه

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم ١ : ٢٣

(٢) ١٠ تائية السلوك للشرنوبى .

(٣) راجع : نظرات فى فلسفة العرب لجبور عبد النور ص ٣٣٢ طبع بيروت و ٧٧ - ٧٨ التصوف عند العرب له أيضا طبع بيروت .

« روض القلوب المستطاب » كلمة « صوفى » تشير بحروفها إلى معان كثيرة : فالصاد إلى الصبر والصلاة والصوم الخ والصدق ، والواو إلى الود والوعد والوصل ، والفاء إلى الفرقان والفتح الخ .

ويقول ابن عربى :

إن التصوف تشبيه بخالقنا لأنه خلق فانظر ترى عجبا [١]

ولفظ التصوف لم يعرف مصحوبا برسومه إلا فى القرن الثانى الهجرى .

وقد اهتم الحسن البصرى بشرح التصوف ، وتكلم عن آفات النفوس ؛ ويليه فى منزلته أبو حمزة الصوفى وهو أستاذ البغداديين .

ودخل الحسن البصرى جامع البصرة وجعل يخرج القصاص ، ويقول : القصص بدعة [٢] .

وأول من أطلق عليه اسم الصوفى هو أبو هاشم الكوفى (١٥٠ هـ [٣]) .

ويقول العمار الآمدى فى كتاب حياة القلوب : التصوف ـ وهو علم الباطن وحقيقة الشريعة ـ علم تعرف منه أحوال النفس فى الخير والشر وكيفية تنقيتها من عيوبها وآفاتها لتطهيرها من الصفات المذمومة والرذائل المعنوية ، التى ورد الشرع باجتنابها والتمسك بضدها من الصفات المحمودة التى طلب الشرع تحصيلها وكيفية السير والسلوك إلى الله تعالى على قدم الإخلاص والصدق والفرار إليه من نقائص الخلق .

---

(١) ٢ : ٣٥١ و ٣٥٢ الفتوحات المكية ، ولو قال الشيخ : فانظر تر العجبا ، أو فانظر تجد عجبا لجاء البيت على ماينبغى أن يكون عليه .

(٢) ٢ : ١٢ التصوف الإسلامى ، زكى مبارك .

(٣) ٨٤ الحياة الروحية فى الاسلام ، محمد مصطفى حلمى .

الفصل الثانى

منابع التصوف الإسلامى

١ — إن حركة الزهد والرهبنة والانقطاع إلى عبادة الله فى الأديرة والصوامع والكهوف من الجبال وفى الفلوات كانت موجودة فى كثير من الديانات القديمة السماوية والوثنية ، وأهل الهند مشهورون بذلك من قديم حتى اليوم ، والزهد هو المعنى العام للتصوف الإسلامى ، أما التصوف بمعنى الخاص فهو إسلامى محض .

يقول القشيرى فى رسالته : « أما بعد رضى الله عنكم فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسراره واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره ، فهم الغيث للخلق ، والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق ، بالحق صفاهم من كدورات البشرية ورفعهم إلى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ، ووفقهم للقيام بآداب العبودية وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية ، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكاليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف ، ثم رجعوا إلى الله تعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار ، ولم يتكلموا على ما حصل من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال ، علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ويختار من يشاء من العبيد ، وثوابه ابتداء فضل وعذابه حكم عدل وأمره قضاء » .

ويقول السهروردى فى « عوارف المعارف » :

« اعلموا رحمكم الله أن شيوخ هذه الطائفة (الصوفية) بنوا قواعدهم على

أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل وعرفوا ماهو حق القدم ، وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم ، ولذلك قال سيد هذه الطريقة الجنيد رحمه الله : التوحيد افراد القدم من الحدث .. وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد »

فالقرآن الكريم[1] شرع التصوف بآياته الباعثة على التقوى والآمرة بالإخلاص واليقين والتوكل وحسن العبودية لله ، وغير ذلك ؛ وتلك الآيات تشغل من القرآن ما يقارب نصف مجموعه ، والباقي في تشريع العبادات والمعاملات وقصص السالفين ، لتكون عبرة وذكرى للمتذكرين ولكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ففي قوله تعالى : « فأقم وجهـــك للدين حنيفا »[2] وفي قوله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » — وفي قوله : « لمن كان له قلب » — وفي قوله : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض » إلى آخر الآية ، وفي قوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » أي العلماء بالله ، وفي قوله : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » . . إلى آخر الآية وفي قوله : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » الخ ، وفي قوله : « والذين جاهدوا فينا » الخ ، وفي قوله : « لنهدينهم سبلنا » - وفي قوله : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » الخ - وفي قوله تعالى : « عبادي »

---

(١) ص ٣١ المدخل إلى التصوف الإسلامي للنوفي .

(٢) الروم من آية ٣٠

و « عبادنا » ، « يحبهم ويحبونه » . « رضى الله عنهم ورضوا عنه »(١) .

وسائر الآيات التى تذكر المحسنين والصـــادقين والمخبتين والموقنين والصابرين والراضين والمتوسمين . والتى فيها « أولئك حزب الله » وذكر المتقين فى قوله « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وكذلك كل الآيات التى تحث على النظر فى خلق السموات والأرض وفى الآفاق والأنفس، كل ذلك يدلك على أن أصول التصوف الإسلامى الحق وقواعده ـ وهى ليست غير هذا ـ مستمدة من كتاب الله . والك فى استثناء الله لأحبائه وأهل معيته من خاصة المسلمين والمؤمنين فى قوله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق » . ففى هذه الآية يخاطب الله المؤمنين الذين قطعوا شوط الإسلام بأحكامه وآدابه ، ثم ترقوا إلى مرتبة الإيمان . وهم بهذا صفوة المسلمين . وفى قوله « ألم يأن » أى ألم يأت الوقت وألم يحن الحين للذين آمنوا بعد أن أسلموا ، أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، فيكونوا من المحسنين وخص هنا الذكر لفضله على سائر العبادات ، حتى على الصلاة نفسها . لأنها على فضلها بعض الذكر ، وليس الذكر على شموله بعض الصلاة ، وهذا ظاهر فى قوله تعالى : « ولذكر الله أكبر » ، بعد قوله : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ـ أى أن الذكر أكبر شأنا وأعظم درجة برتبه الثلاث ، باللسان أو بالقلب أو بالروح ، وما نزل من الحق معناه : الحق الذى نزل فى الكتاب من عند الله من الدلالات الباعثة على الفكر والذكر وحسن المعتقد وتصحيح العبادات والمعاملات .

والمفروض أن يذكر العاصى أو الناسى ، أما أن يذكر المؤمنون فهذا شىء هائل ـ معناه أن تفزع تلك القلوب التى أسلمت ثم آمنت ، إلى اعتلاء ذروة اليقين بغية التعرف الحق إلى الله جملة وتفصيلا . وهذا مقام لا يخاطب

---

(١) التوبة من آية (١٠٠) .

فيه إلا أهل الإحسان وهم أهل التصوف الحق « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » - ١٣ الحجرات .

٢ - ويجعل المستشرق « ماسينيون » التصوف دخيلا على الإسلام تمهيدا لتجريح رجاله ، فسلك طريقا عجبا ! ليوهم أن لرأيه أسانيد علمية وتاريخية ، وسابقة من الأفكار الإسلامية . فقال : إن علماء الإسلاميات ليحارون فى تعليل الخلاف الكبير فى العقيدة بين مذاهب التصوف ، وبين مذاهب أهل السنة ، ومن ثم ذهب إلى أن التصوف دخيل على الإسلام بعيد عن روحه . ولم يذكر لنا ماسينيون من هم علماء الاسلاميات الذين قالوا هذا ؟ ولم يسق دليلا واحدا على دعواه .

وأما المستشرق - مركس - فقد قال إن التصوف الإسلامى مأخوذ من رهبانية الشام خاضع للروحانية المسيحية ، وذلك منطق لم نعرفه إلا من أمثال المستشرق مركس وصحبه الذين بذلوا حياتهم صائحين بأن الإسلام عقيدة جافة مادية بعيدة عن الروحانية ، فلما ووجهوا بالتصوف تنادوا بأنه من وحى المسيحية ، ومن إلهام رهبانيتها .

وذهب جونس إلى أنه مأخوذ من أفلاطونية اليونان الحديثة ، أو من زرادشتية الفرس ، أو بمعنى آخر يريد أن يقول : إن التصوف الإسلامى وثنى ، لأن فلسفة اليونان وثنية ، وكذلك الفلسفة الفارسية .

وذهب نيكلسون إلى أن الزهاد المسلمين - الصوفية - قد تشبهوا برهبان النصارى فى لبس الصوف (١) ، وكذلك ذهب مذهبه ماسينيون .

---

(١) ١٤ التصوف عند المستشرقين - عدد ٢٧ من سلسلة الثقافة الإسلامية بالقاهرة .

ويدعى نيكلسون أن التصوف الإسلامى قد تكون من تأثيرات خارجية غير إسلامية هى المسيحية والأفلاطونية الحديثة والبوذية ، وأنه ليس فى القرآن أصل للتفسير الصوفى للإسلام (١) ، وأن الرافد الأصيل لحب الله عند الصوفية منتزع من المسيحية .

وهنا يفرق نيكلسون بين حركة الزهد والعبادة كحركة عامة إنسانية قديمة ، وبين حركة التصوف الإسلامى كحركة إسلامية خالصة نشأت فى بيئة الإسلام الأولى وترعرعت فى ظلاله ، وذلك لغرض فى نفس يعقوب ، فالتصوف بمعناه العام قديم موغل فى التاريخ ، كقدم النزعة التى دعت إليه ، وهى نزعة تصفية القلب وإخلاص العبودية لله ، ولكنه لما وجد تحت ظلال الإسلام . وأحيط بآداب القرآن ، دخل فى دور جديد (٢) .

ورد مصطفى عبد الرازق على جولدزيهر (٣) فى زعمه بأنه يجب عند النظر فى التصوف الإسلامى نظرا تاريخيا تقدير النصيب الهندى الذى أسهم فى تكوين هذه الطريقة الدينية (٤) المتولدة من المذهب الأفلاطونى الجديد ، مما تابع فيه زميله نيكلسون ، أو أن نيكلسون على الأصح قد تابعه فيه .

إن منابع التصوف الإسلامى هى منابع إسلامية صرفة ، وفى ذلك يقول الإمام الجنيد : مذهبنا هذا - التصوف - مقيد بأصول الكتاب

---

(١) ١٧ المرجع نفسه .

(٢) دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى، وراجع فى ذلك ص ١٩ التصوف عند المستشرقين لأحمد الشرباصى .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية - مادة تصوف

(٤) يقول إقبال : إن المثل الاعلى الذى يهدف إليه العمل الإنسانى هو التجرد من لوثة الظلمة ... ويرى نيكلسون أن فى ذلك تأثراً بالمانوية، وفى هذا خطأ منشؤه عدم الفهم العميق لكلمة الشاعر .

والسنة (١) ، ويقول : علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ، ويقول : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة (١) .

نعم إن المسيحية هي دين الزهد ، ولكن الزهد هو المعنى العام للتصوف لا المعنى الخاص الذى كان عليه التصوف الإسلامى ، ونجد أن المسيحية وهى تقول بطبيعة واحدة للمسيح عندما تلتقى بالتفكير الوثنى الإغريقى والرومانى فى جامعة الإسكندرية وغيرها تعود فتقول بالتثليث لأن عادة التفكير الوثنى تأليه البشر ، والقول بألوهية بعض الناس ، وكذلك نرى فكرة التثليث واضحة فى مصر القديمة (إزيس ، أوزوريس ، هورس) .

والأفلاطونية الجديدة ليست إلا أثرا لاتصال الفكر الشرقى بالفكر الإغريقى فى جامعة الإسكندرية القديمة ، هذا الاتصال الذى نشر فكرة التثليث ، وأول من نشر فكرة التثليث فى المسيحية هو راهب مصرى لم يلبث أن أصبح البابا العشرين لكنيسة الإسكندرية (٣٢٦ — ٣٧٣ م) واسمه اثناسيوس (٢) ، وكانت أوديسا مركزا للقائلين بطبيعة واحدة للمسيح ، وكان النصارى الساميون يحاربون التماثيل الوثنية ، وعقدت المؤتمرات الدينية للبحث فى طبيعة المسيح وإدخال الصور والتماثيل .

ولقد وقف المستشرقون من الإســـلام نفسه موقفا أعجب فذهب نيكلسون إلى أن الإسلام بجملته وتفصيله مردود فى أصوله وفروعه إلى الرهبنة المسيحية .

ويذهب جولد زيهر إلى أن الآرية أعظم من السامية ، وكذلك رينان الذى فصل بين العقلية الآرية والعقلية السامية ، أى بين العقلية الشرقية

---

(١) ص ١٩ الرسالة القشيرية .

(٢) تاريخ الكنيسة المصرية ـ مجلة الهلال ـ عدد ديسمبر ١٩٢٧

والأوربية ، ورأى أن الغرب يبدع والشرق يحاول فهم إبداع المدركات الأوربية .

وعلى هذا النمط يفكر غوستاف لوبون صاحب «حضارة العرب» الذى ابتدع للإسلام أصلا من الأسطورية اليونانية والرهبنة المسيحية .

وعلى هذا المنهج يفكر كايتانى الإيطالى صاحب «حوليات الإسلام»، والأب لامنس البلجيكى ، وماسينيون الفرنسى ، ونيكلسون الإنجليزى وسواهم .

وتترنم بعض الآداب المصرية القديمة بفكرة تمجيد الله والتبتل فى محبته وطاعته ، وقد عمل اخناتون على نشر فكرة التوحيد ، ولكنه أخفق وقضى على مذهبه بعد وفاته (١) .. ولا يصح أن نسمى ذلك تصوفا ، ونذهب إلى أنه منبع من منابع التصوف الإسلامى ، وكذلك لا يصح أن نربط بين التصوف وبين بعض الأفكار الفارسية ، القديمة ، والمذاهب الهندية القديمة فى الزهد كذلك .

وإذا كان الرهبان والأحبار فى الأديرة والصوامع قد لجأوا إلى الزهد ، وعاشوا به وعليه ، فإن حركتهم هذه ليست لها صلة بالتصوف الإسلامى

وسوف نعرض لما بين التصوف الإسلامى والأفلاطونية الجديدة ، من بعض المشابه ، وننفى أن تكون هذه الأفلاطونية الجديدة قد أثرت فى التصوف الإسلامى ، وذلك عندما نتحدث عن الحب الإلهى عند الصوفية .

---

(١) راجع كتاب اخناتون لعبد المنعم أبو بكر ـ سلسلة المكتبة الثقافية عدد ٣٥

منزلة التصوف بين فروع المعرفة فى الإسلام

يحتل (١) التصوف بين فروع المعرفة الإسلامية المكان الأعلى ، فهو خلاصة الحكمة فى الآداب الإسلامية ، وخلاصة النور فى الفضائل المحمدية . وهو جماع الدراسات النفسية والقلبية فى الفكر الإسلامى . وهو المساهم الأكبر فى تجلية المعانى القرآنية والأحاديث النبوية ،والتصوف بذاته ثمرة كبرى فى المعارف الإسلامية . وهو بما أثار حوله من معارك وخصومات ومجادلات ثروة ضخمة لرواد العلوم والمعارف العالمية ؛ وإلى التصوف يعزى الفضل فى تحطيم الفلسفة المادية فى الشرق ، وفى وقف التيارات الإلحادية والمذاهب المارقة التى غمرت العالم الإسلامى منذ فجر وجوده ،يقول المستر « ادوار روس » فى كتابه فلسفة الدين الإسلامى : إن ظهور الفرق الصوفية التى انتشرت فى الإسلام لشهادة بوجود الشوق فى التعاليم الإسلامية إلى اتصال وثيق بإله رحيم رحمن يفيض بالحب .

ولا يمكن إغفال ما أفاد الإسلام من الثقافة الصوفية ، فالتصوف هو الذى ملأ الجوانب الخالية من قلوب المسلمين ، والصوفية علموا الناس المحبة ، وأشاعوا فى الدنيا الصفاء ، وأضفوا على الحياة الطهر والنقاء .

والتصوف هو الذى أنشأ فى قلب العالم الإسلامى جامعات كبرى ، قبل أن توجد الجامعات بمئات السنين . فمدارس الشيخ والمريد ، مدارس نموذجية نسيج وحدها فى الكوكب الأرضى ، إنها لأكاديميات علمية ، يتلقى الأساتذة فيها النور من الله لأنهم يعرجون بقلوبهم المحبة إليه ؛ ثم يفيضون بعلمهم وهداهم على مريديهم وأتباعهم ؛ على أن أساليب التربية ومكارم الأخلاق بين الشيخ والمريد فى تلك الجامعات هى أرقى ألوان التربية فى العالم وإن أهداف التعليم وغاياته ومراميه لديهم هى أسمى ما تلقاه طالب على أستاذ منذ وجد العلم والتعلم .

---

(١) ص ٧٤ وما بعدها ج ٢ من أعلام التصوف الإسلامى .

وشعراء الصوفية هم الذين ارتفعوا بالنثر إلى درجة فنية عليا واستخدموه سلاحا نبيلا للدعوة إلى الله وتجميل الحياة وتطهيرها ومقاومة البغي والعدوان وما يشبه البغي والعدوان من ألوان ؟! وتراث التصوف الأدبي ـ فضلا عن الروحي والعلمي ـ ثروة لم تتنبه إليها الأقلام بعد، على روعتها وشمولها لأهداف القلم الأدبية كافة.

فكاتب القصة يجد مادتها الدسمة الغنية، في حياة رابعة العدوية، التي خلدها الفرس في أكثر من خمسين كتابا. وفي أسطورة الحلاج الغامضة وما أحاط موته من مكائد وشباك، وسيرة محيي الدين وتنقلاته ومغامراته وشطحاته، ووثبات إبراهيم بن أدهم من ملك الدنيا ولهو الحياة إلى محاريب الطاعة والإيمان. ودارس العلوم النفسية والاجتماعية، يجد آداب الإنسان الكامل في الجيلاني والدسوقي والبسطامي الذين جعلوا المعصية والطاعة من نبع واحد مع اختلاف الصورة وانحراف النفس أو اعتدالها، والذين جعلوا من رسالة المحبة حنانا بكل كائن حي، بل وهبوها للجماد، أليس في الجماد حياة؟ أليس يسبح بحمد ربه؟ وأليست الحجارة تخشع من هيبة الله؟.

ويجد ألحان الإيمان ونشوة الوجد ولوعة الحب في ابن الفارض والجنيد وذي النون، ومن سار على شرعتهم ونهج نهجهم. إن التصوف هو دنيا كاملة من علوم وأخلاق، ومعارف وفنون، وقصص وفلسفة وفقه وأصول، وما شاء العالم من علم، وما شاء الأديب من أدب، وما شاء طالب الأنس واللذة والاطمئنان والسعادة ليرشف من رحيق مختوم، حتى يذوب وجداً وحبا. إنه أدب يتسامى طهرا وكمالا، وعلم لم يكن ريبة في القلوب، ولا شكا في النفوس، بل كان نورا وهدى وطاعة وإيمانا.

ورحم الله أبا محمد بن يحيى لقد استمع إلى حديثهم، فخرج من مجلسهم هاتفا: إن كلامهم لقريب العهد من الله، وإن له لصولة ليست بصولة مبطل. على أن ذروة العلم الحاضر، هو اكتشاف الذرة، ويتيه علماء الذرة بأنهم

قد وجدوا فيها شمساً وأفلاكا تدور حولها ؛ وفريد الدين العطار الصوفى المحب الفانى قد سبقهم بأكثر من سبعمائة سنة فى هذا الكشف إذ يقول فى كتابه « منطق الطير » : « ليس فى العالم صغير وكبير ، فالذرة فيها الشمس والقطرة فيها البحر ، وإن شققت ذرة وجدت فيها عالما ، وكل ذرات العالم فى عمل لا تعطيل فيه . إذا فلقت أى ذرة وجدت فى قلبها شمساً » .

فهل وصل العلم المادى إلى أبعد مما وصل إليه فريد الدين العطار بروحه وإلهامه وقلبه ؟ .

وكان التصوف من العلوم التى تدرس فى الأزهر الشريف فى القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين كما جاء بيانها فى رسالة مقدمة من شيخ الأزهر إلى الخديوى فى سنة ١٣١٠ هـ ، والكتب التى تدرس فيه هى : الإبريز للشيخ عبد العزيز ـ الأنوار القدسية للشيخ عبد الوهاب الشعرانى ـ المنن الكبرى للشيخ الشعرانى ـ بستان العارفين للشيخ نصر السمرقندى ـ تاج العروس لابن عطاء الله السكندرى ـ التجليات الإلهية للشيخ محى الدين بن عربى ـ تحفة الإخوان للشيخ الدردير ـ تفليس إبليس للشيخ عز الدين بن عبد السلام ـ تنبيه الغافلين للشيخ نصر السمرقندى ـ التنوير فى إسقاط التدبير للشيخ ابن عطاء الله السكندرى ـ الإحياء للغزالى ـ قوت القلوب لأبى طالب المكى (١) .

---

(١) ٣ : ٨٣ الأزهر فى ألف عام للمؤلف .

الفصل الثالث

التصوف الإسلامى وحركته التاريخية

الرسول الأعظم :

فى القرآن الكريم دعوة إلى التبتل والتهجد والزهد والإخلاص فى العبادة ، والجد فى الطاعة ، وإلى كثير من القيم الإنسانية العالية .

والرسول الأعظم ، وهو من هو توحيداً وعبادة ، وطاعة وامتثالا لله رب العالمين ، كان يتلقى آيات القرآن الكريم بالعمل والطاعة والانقياد لله ؛ ومواقفه فى الإخلاص لله ولرسالته ، وفى الصبر على مشقات العبادة ، وفى تحمل هموم العبادة والزهد ، معروفة مشهورة ، وقد كان من قبل الرسالة يحب العزلة والاعتكاف ، وكان يقصد غار حراء شهرا من كل عام يعتكف فيه ، ويتطلع ببصره نحو السماء لتنقذه وتهديه ، لقد كان صلى الله عليه وسلم - بما فطر عليه من توحيد خالص ، وما نهجه لنفسه من الطاعة الكاملة لمولاه ، وما أحبه من عبادة وتهجد وذكر وابتهال إلى الله - كان صلى الله عليه وسلم إمام الصوفية - ورائدهم العظيم إلى المعرفة والشوق والتوحيد والوجد .

وفى قول (١) الرسول : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ولما سئل صلى الله عليه وسلم عن الجهاد الأكبر قال : « جهاد النفس » - فى ذلك أصل عظيم من أصول التصوف الإسلامى ، لا يعادله فى عظمته إلا ماورد فى الحديث الآخر المتواتر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى ذكر فيه : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان حين سئل عن الإحسان ماهو ؟ فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك » . وهو الأصل

---

(١) ٣٥ المدخل إلى التصوف الإسلامى - للمنوفى .

العظيم لاستمداد التصوف من السنة المطهرة بعد الكتاب الحكيم ، وبين هذين الأصلين الكتاب والسنة ـ مجاهدة النفس الأمارة ، ومراقبة الله فى العمل ، وسائر مقامات التصوف كالتوبة والانابة والصبر والرضا والتوكل . وأيضا أحوال الصوفية كالحب والأنس والخوف والرجاء والمشاهدة الخ .

وفى قول رسول الله (عليه السلام) فى تعريف الإحسان للسائل : « أن تعبد الله كأنك تراه » — وذلك مقام المشاهدة — آخر مقامات التصوف، وقوله (عليه السلام) : « فان لم تكن تراه فانه يراك » — فذلك مقام التقوى ، والمراقبة ـ ومحله فى مقامات السلوك بعد التوبة والانابة : ففى الأول يشهد السالك الحق سبحانه وتعالى متجليا عليه باحسان ، وفى «الثانى» يشهده رقيبا عليه فى سائر أعماله وأحواله . فإذا أضفنا إلى ذلك من أخلاق رسول الله (عليه السلام) ومن أحواله مع الله كثرة الخلوة والتبتل والذكر والتفكر حكمنا محقين بأن السنة بعد الكتاب من أهم مصادر التصوف الإسلامى . بإجماع المسلمين ، إجماع سائر المقربين من الصحابة والتابعين والأئمة المخلصين ، وسيأتى ذكرهم فى مكان آخر من هذا الكتاب .

ولاشك لدى من فقه الشرع الإسلامى فى أن الشريعة المطهرة هى أقوال الرسول (عليه السلام) وأن الطريقة هى أفعاله (عليه السلام) ومعناها طريقة الاستقامة على الاتجاه المؤدى إلى الله ، وأن الحقيقة هى أحواله (صلى الله عليه وسلم) وأن أفعاله تقوم على أقواله ، وأحواله الشريفة كانت ثمرة ونتيجة محتومة لأفعاله ، وهى كالخلق الكريم المستمد من القرآن ، والمناجاة لله وذكره والتبتل إليه الخ . وذلك هو المثل الأعلى والهدف الأسمى للإسلام والإيمان ؛ ولذا يقول عليه الصلاة والسلام : « لى وقت مع الله لايسعنى فيه إنس ولا جن ولا ملك ولا شيطان » ـ وفى

الحديث القدسى : « ماتقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضه عليه[1] ، ومايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل [2] حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها [3] ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواصل التعبد والتهجد والاستغفار والذكر والصلاة حتى تتورم قدماه ، وحتى ليشفق عليه ربه الكريم الرحيم فيقول له تعالى : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » .

وكان الرسول يبكى من خشية الله ويرتجف ، ويدعو ربه تضرعا وخيفة فى أدبار السجود وأسحار الليل وأطراف النهار ، ويقول « والله لو علمتم من الله ماأعلم لخرجتم إلى المقابر تجأرون » . وتروى عائشة رضوان الله عليها « أنه كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه فقالت له : لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر ؟ فقال : أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا » .

وفى أعمال الرسول وأحاديثه عن الدنيا نفحات صوفية عالية ، قال يوما لأبى هريرة « يا أباهريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها ؟ فقلت بلى يارسول الله فأخذ بيدى وأتى بى واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رؤوس أناس وعذرات وخرق وعظام ، ثم قال : ياأباهريرة ! هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم ، وتأمل كأملكم ، ثم هى اليوم عظام بلاجلد ، ثم هى صائرة رماداً ،وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم، اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها من بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم ، فأصبحت والرياح تصفقها ،

---

(١) أى ماافترضته عليه من أداء شعائر الإسلام واستشعار حقائق الإيمان .
(٢) أى النوافل الزوائد من أنواع القربات علاوة على أداء المفروضات .
(٣) وقول (ورجله) أى كنت متوجهه الذى يتجه إليه .

وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ، فمن كان باكيا على الدنيا فليبك » . وأتى رجل بهدية إلى الرسول صلوات الله عليه ، فذهب يتلمس وعاء يفرغها فيه فلم يجد ، فقال له الرسول « فرغها فى الأرض ، ثم أكل منهـا وقال : آكل كما يأكل العبد ، وأشرب كما يشرب العبد ، لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى منها كافرا شربة ماء » . وقال صلوات الله عليه « مالى وللدنيا ، إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب قال فى يوم صائف ثم راح وتركها » . ثم يقول « ماالدنيا فى الآخرة إلا مثل مايجعل أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بماذا يرجع ! ؟ » .

« ودخل عمر بن الخطاب رضى الله عنه على النبى صلوات الله عليه فرآه يضطجع على حصير خشن ترك آثاره على جنبه ، فبكى عمر ، فقال له الرسول ما يبكيك ؟ قال : أرى كسرى وقيصر على الحرير والإستبرق ، وأراك على هذا الحصير ؟ فغضب الرسول وقال : أتريدها كسروية ياعمر ؟ » وطالما كان صلوات الله عليه يردد دعاءه الكريم العظيم : « اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى مع المساكين » ، ويقول : تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد القطيفة .

أهل الصفـــة :

كان أهل الصفة من أصحـاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا ينقطعون إلى العبادة فى صفة بناها لهم رسول الله صلوات الله عليه فى مسجده ، ومنهم أبو هريرة رضى الله عنه وحذيفة بن اليمان وغيرهما .. وهم أولى مدارس التصوف الإسلامى على الحقيقة .

ويقول الله تعالى « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا(١) » . والمراد بقوله :

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الكهف .

« الذين يدعون ربهم » أهل الصفة . المراد بقوله : « من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه » عظماء قريش حيث كان النبي يدع مجالستهم ويجلس إلى أولئك الفقراء من الناس العاكفين على ذكر الله فى صفة مسجده . وفى أهل الصفة نزل القرآن بذكرهم فى قوله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » وقد طلب إليه عظماء قريش أن يتخلى عن أولئك ليفرغ إليهم فيجالسوه . فنزلت تلك الآية .

وفى ابن أم مكتوم ـ وهو واحد من أهل الصفة ـ نزلت الآية : «عبس وتولى أن جاءه الأعمى» عتابا من الله للرسول فى حقه . وقد وقف عليهم الرسول يوما مواسيا ومبشرا فقال لهم : « أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى منكم على النعت الذى أنتم عليه اليوم راضيا بما هو فيه فانه من رفقائى يوم القيامة » . وكان الرسول إذا صافحهم لا ينزع يده من أيديهم إلا إذا نزعوا » .

وأهل الصفة هم خلاصة أصحاب الرسول ، وأصدق أنصاره ، الذين كانوا يرابطون فى صفة المسجد لإمداد جيوش المسلمين ، فهم من هذه الناحية فدائيو الإسلام ، ومنهم مندوبو الرسول لتعليم الدين فى سائر القبائل والأمصار ، وهم معلمو القرآن وأحكامه وتفسيره . ومنهم خيار المؤمنين كحذيفة ، وأبى ذر ، وأبى الدرداء ، وعكاشة ، وجابر ، ومنهم أبطال الإسلام كخالد بن الوليد ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص.. فضلا عن الصديق أبى بكر ، والفاروق عمر ، وذى النورين عثمان ، وباب الحكمة على بن أبى طالب ، وابنه الحسن ثم الحسين ، والمؤذن بلال وتميم الدارى ، وجعفر الطيار ، وسلمان الفارسى ، وشداد بن أوس ، وصهيب ، وأبى هريرة ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جحش ، وعبد الله بن أبى رواحة ، وعتبة بن غزوان ، وعمار بن ياسر ، وعثمان بن مظعون ، وأبى موسى الأشعرى ، وعاصم الأنصارى ، وعامر بن فهيرة ، وعامر بن ربيعة ،

وعمير بن سعد ، ومصعب بن عمير ، والمقداد بن الأسود ، وغيرهم كثيرون من أصحاب الصفة ، وأصحاب بيعة العقبة وأهل بيعة الرضوان ، والخلصاء من المهاجرين والأنصار(١) ، وهم جلة الصحابة ، ثم خلفهم التابعون ومن بعدهم ، ممن كانوا مثلا أعلى للصوفية ، ومنهم : على بن الحسين زين العابدين ، وابنه محمد بن على الباقر ، وابنه جعفر الصادق رضى الله عنهم ، وعويس القرنى ، والحسن بن أبى الحسن البصرى ، وسفيان الثورى ، وأبو حازم سليمى بن دينار ، والإمام مالك بن دينار ، وعبدالواحد بن زيد ، وعتبة الغلام ، وابراهيم بن أدهم ، والفضيل بن عياض ، وابنه على بن الفضيل داود الطائى ، وأبو سليمان الدرانى ، وأحمد بن الحوارى . وذوالنون المصرى الأخميمى ، وأخوه ذو الكفل ، وبشر بن الحارث ، ومعروف الكرخى ، وأبو محمد ابن المبارك ، ويوسف بن أسباط ، وأبو يزيد البسطامى ، وسهل بن عبدالله التسترى وسواهم .

صحابة رسول الله :

وقد عاش صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عيشة الزاهدين القانعين المتبتلين .

كان أبو بكر ، يتعبد لربه حتى لتشم من فمه رائحة الكبد المحترق من خشية الله . وكان يتعبد بالقرآن طوال ليله ، حتى لقد طلب المشركون من الرسول فيما طلبوا أن يمنع الصديق من قراءته لأن صوته الباكى بلحن القرآن يفتن الناس ، وكان يقول : من ذاق من خالص المعرفة شيئا شغله ذلك عما سوى الله ، واستوحش من جميع البشر .

---

(١) ومنهم ابن أم مكتوم ، وقد عاتب الله عز وجل رسوله الكريم فى شأنه كما سبق .

وفى إحدى الغزوات ، دعا الرسول المسلمين إلى البذل فى سبيل الله ، لجاء أبو بكر بجميع ماله ووضعه بين يدى الرسول ، فقال له الرسول : ماذا أبقيت لأبنائك ؟ فضحك أبو بكر وقال : أبقيت لهم الله ورسوله ، .
وكان يقول : ما اشتهيت طعاما إلا منعت نفسى منه ، فلا يتلف النفوس إلا الشهوات،وكان يبيت على الطوى راضيا قائلا : فى العبادة غنى لمن يريد ؛ واستسقى يوما فأتى بإناء فيه ماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله . فقالوا: ماهاجك على هذا البكاء ؟ قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وجعل يدفع عنه شيئا ويقول إليك عنى ، ولم أر معه أحداً ، فقلت يا رسول الله ما هذا ؟ قال : هى الدنيا تمثلت لى بما فيها . فقلت إليك عنى ، فتنحت وقالت : أماوالله لئن انفلت منى ، لاينفلت منى من بعدك ، فخشيت أن تكون قد لحقتنى فذاك الذى أبكانى . .

وكان عمر بن الخطاب ؛ يلبس الثوب المرقع ، ويأكل الخبز دون إدام، وتأخر يوما عن المسجد فقال له أصحابه : ماحبسك عنا ياأمير المؤمنين؟ قال: ثوبى كان يغسل وليس لى سواه . وكان يفترش الأرض وينام على الحصى .

ووقف رضى الله عنه بأصحابه على مزبلة ، فأطال الوقوف حتى أضجرهم فقالوا : مالك حبستنا هنا ؟ فقال : هذه دنياكم التى تتنافسون عليها .

ولبث على كرم الله وجهه شهراً كاملا طعامه فى كل يوم ثلاث تمرات ، ولم يكن فى بيته سوى سيفه ودرعه وقطيفة ، إن افترشها مع زوجه فاطمة بنت النبى لاتغطيهما ، وإن تغطيا بها لم يجدا فرشا لهما ، وكان يطحن بيده على الرحى ملء يده من الشعير ثم يتقاسمــــه مع فاطمة ويمضى اليوم بهما على ذلك .

ويصف ضرار الصدائى عليا كرم الله وجهه فيقول : كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه

وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله طويل الفكرة غزير العبرة ، يعجبه من الطعام ما خشن ، ومن اللباس ماقصر ، يحب المساكين ، ويعظم أهل الدين . وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد غارت نجوم الليل يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين . ويقول : يادنيا غرى غيرى ، ألى تقربت ؟ هيهات هيهات ، قد باينتك ثلاثا ، فأمرك حقير وأجلك قصير ، آه من قلة الزاد ، وبعد الطريق .

وزار عمر بن الخطاب الشام ، فأراد أن يرى أمير الشام أبا عبيدة بن الجراح : فارس الإسلام والبطل الفاتح العالمى ، فلما دخل منزله لم ير شيئا ! فقال أين متاعك ؟ قال : ماترى، قال : لست أرى إلاقصعة وقطعة من لبد . قال: حسبى هذا ، فهذه لطعامى ووضوئى ، وتلك لمجلسى ومنامى. فبكى عمر إشفاقا على ابن الجراح . فقال : أتبكى ياأمير المؤمنين على لأننى بعت دنياى واشتريت آخرتى ؟

وزار عمر أيضا مدينة الكوفة يتفقد أعمالها ، فقال : اكتبوا لى أسماء الفقراء لأبذل لهم ، فقدموا إليه صحيفة بالأسماء ، فوجد اسم سعيد بن عامر فقال : من سعيد بن عامر ؟ قالوا : أميرنا ، قال : وأين عطاؤه ؟ قالوا : ينفقه على الفقراء ولايبقى لنفسه شيئا ، فأرسل إليه عمر ألف دينار . فلماوصلت إليه أخذ يصيح ويستعيذ بالله . فقالت له زوجه : ماخطبك ؟ هل مات أمير المؤمنين ؟ قال : الأمر أعظم . قالت : ماذاحدث ؟ قال : الدنيا جاءت إلى، قالت : لاتجزع . قال : وأى أمر أعظم من هذا ؟ وخرج إلى الطريق فرأى جيشا إسلاميا يتحرك للقتال ففرق المال بين جنوده ، ورجع إلى منزله يحمد الله إذ نجاه من فتنة الدنيا .

وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم يوما من بيته يطوى بطنه على

الجوع ،فالتقى بصاحبيه أبي بكر وعمر ، فعـــلم منهما أن أمرهما كأمره ، وأنهما لايجدان قوت يومهما ، والتقى بهم رجل من الأنصار فاستضافهم ، فلما وصلوا إلى منزله ، وجدوا تمرا وماء بارداً وظلا وارفا ، فلما تبلغوا بتمرات وشربوا من الماء ، قال صلوات الله عليه : « لتسألن يومئذ عن النعيم » .

وفى سيرة عثمان وطلحة والزبير وأبى الدرداء وأبى ذر والحسن والحسين ، وغيرهم من جلة الصحابة الكثير من المثل الرفيعة فى الإسلام .

حذيفة بن اليمان :

كان حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أول من فلسف العبادة ، وجعل منها طريقة خاصة ، بل أول من رفع العلم وسار على الجادة ، قيل لحذيفة : نراك تتكلم كلاما لم نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله فمن أين أخذته ؟ فقال : « خصنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأل عن الشر مخافة أن أقع فيه وعلمت أن الخير لايسبقنى » ، وقال فى حديث آخر : « فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير » وفى لفظ آخر « كان الناس يقولون يارسول الله ، ما لمن عمل كذا وكذا . يسألونه عن فضائل الأعمال ، وكنت أقول : يا رسول الله مايفسد كذا وكذا ، فلما رآنى أسأل عن آفات الأعمال خصنى بهذا العلم » وقال أبو طالب المكى : كان حذيفة قد خص بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وبسرائر العلم ودقائق الفهم ، وخفايا اليقين بين الصحابة ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لايصلى على أحد مات إلا إذا رأى حذيفة يصلى عليه ، لأنه اختص بهذا العلم الباطنى .

وحول حذيفة نشأت مدرسة صغيرة من بعض الصحابة كواصبة . صاحب الحديث المشهور قال : « أتيت رسول الله وأنا أريد أن لاأدع

شيئاً من البر والإثم إلا أسأله عنه ، فجعلت أتخطى الناس فقالوا : إليك ياواصبة عن رسول الله . فقلت : دعونى أدن منه فإنه أحب الناس إلى . فقال : ياواصبة أخبرك بما جئت تسألنى عنه أو تسألنى فقلت : أخبرنى يارسول الله،فقال:جئت تسألنى عن البر والإثم ؟ قلت : نعم . قال : فجمع أصابعه وجعل ينكت بها صدرى ، ويقول ياواصبة استفت قلبك ، استفت نفسك ، البر ما اطمأن إليه القلب فاطمأنت إليه النفس ، وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

ومدرسة حذيفة كانت أقرب إلى الفطرة والبساطة فلم يؤثر عنهم مايؤثر عن صوفية القرن الثانى ومايليه من معارف وعلوم وفنون ، وعلى يديه تخرج إمامها الأول الحسن البصرى .

الحسن البصرى :

أول ما ظهرت الصوفيـــة من البصرة [1] على يدى الحسن البصرى (١١٠ هـ) ، وكان قد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخلق إلا له وحده [2] .

وهو تلميذ حذيفة الأول،والأستاذ الذى تخرج على يديه أئمة التصوف: مالك بن دينار ، وثابت البنانى ، وأيوب السختيانى ، ومحمد بن واسع . وهم أعلام التصوف فى القرن الأول ومطلع القرن الثانى ، وكان الحسن يحدث تلاميذه فى خواطر القلوب وفساد الأعمال ، ووسواس النفس [3] . قال

---

(١) ص ٩ التصوف والفقراء لابن تيمية من سلسلة الثقافة الإسلامية العدد ٢٣

(٢) ص ٢٥ الطبقات الكبرى للشعرانى ، وراجع عن الحسن كتاب الحسن البصرى لإحسان عباس ط دار الفكر العربى بالقاهرة .

(٣) وعن عمران القصير قال : سألت الحسن عن شىء،فقلت إن الفقهاء يقولون كذا وكذا ، فقال : وهل رأيت فقيها بعينيك ؟ إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا البصير بدينه المداوم على عبادة ربه عز وجل .

أبو طالب المكى : كان الحسن أول من أنهج سبيل هذا العلم وفتق الألسنة به ، ونطق بمعانيه ، وأظهر أنواره وكشف قناعه . وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمع من أحد ، فقيل له : يا أبا سعيد ، إنك تتكلم فى هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك فمن أين أخذت هـــذا ؟ فقال من حذيفة ابن اليمان .

قال أبو طالب المكى : كان الحسن البصرى شديد الخوف من الله . ويقال إنه ماضحك أربعين سنة من خشيته لربه ، وإذا تكلم حسبته يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدة ، وإذا سكت ظننت النار تسعر بين عينيه. وعوتب على شدة حزنه فقال : ما يؤمننى أن يكون ربى قد اطلع على فى بعض مايكره فمقتنى ، فقال : اذهب فلا غفرت لك . وكان إذا ذكر عند محمد بن على بن الحسين قال: ذاك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء .. وبه استقرت زعامة التصوف فى البصرة ، حتى قامت فى العراق مدرسة أخرى كان إمامها ، سعيد بن المسيب ، ومن تلاميذه بها أبو حمزة الصوفى وغيره من أعلام بغداد ورجالها .

ونشأت مدرسة ثالثة فى خراسان بزعامة إبراهيم بن أدهم ، ووضحت بذلك مكانة للتصوف ، واتجهت إليه القلوب والأبصار ، فقامت فى وجهه خصومات حادة عنيفة من اليمين والشمال ؛ من رجال الفقه وعلماء الكلام ، ومن رجال العلوم والمذاهب والملل والنحل .

ويقول الحسن : إن لله عز وجل عباداً كمن رأى أهل الجنة فى الجنة مخلدين ، وكمن رأى أهل النار فى النار مخلدين ، قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة . حوائجهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة . صبروا أياما قصاراً تعقب راحة طويلة ، أما الليل فمصافة أقدامهم ، تسيل دموعهم على خدودهم يجأرون إلى ربهم ربنا . ربنا ، وأما النهار فحلماء علماء بررة أتقياء كأنهم

القداح ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، وما بالقوم من مرض ، أو خولطوا ، ولقد خالط القوم من حبهم لربهم وذكر الآخرة أمر عظيم ..

أعلام التصوف فى القرن الثانى الهجرى :

وفى القرن الثانى الهجرى ظهر أعلام كثيرون فى التصوف من، بينهم : سعيد بن المسيب (١٥٩ هـ) ، ويحيى بن دينار (١٣١ هـ) ، والأوزاعى (٨٨ - ١٥٧ هـ)، ورابعة العدوية (١٨٥ هـ)[١] ، وسفيان الثورى (٩٧-١٦١ هـ). وكان يقال له أمير المؤمنين فى الحديث وكان يقول : لا ينبغى للرجل أن يطلب العلم والحديث حتى يعمل فى الأدب عشرين سنة [٢] ، ومنهم : الليث بن سعد (٩٤ - ١٧٥ هـ) [٣] ، والشافعى (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) ، وكان يقول : صحبت الصوفية عشر سنين [٤] ، والإمام مالك (٩٣ - ١٧٩ هـ) ، وسفيان بن عيينة (١٠٧ - ١٩٨ هـ) . وعبدالله بن المبارك (١٨٨- ١٨١ هـ)، وابن السماك (١٨٣ هـ) ، والفضل بن عياض (١٨٧ هـ) ، وابراهيم بن أدهم (١٦٢ هـ) وقد صحب سفيان الثورى والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها [٥] ، ومعروف الكرخى (٢٠٠ هـ) .

وهؤلاء طبقات من العابدين والزاهدين وعلى أيديها ظهر التصوف وعرف اسمه ورسمه ، وكان يسمى من قبل زهدا ، ويسمى معتنقوه زهادا وقراء ونساكا .

---

(١) يجعل الذهبى وفاتها عام ١٨٠هـ (١ : ٢٧٨ العبر فى خبر من غبر للذهبى) .
(٢) ١ : ٤٠ الطبقات الكبرى للشعرانى .
(٣) ٧ : ٣١٨ - ٣٢٧ حلية الأولياء .
(٤) ١ : ٤٣ الطبقات الكبرى .
(٥) ٨ الرسالة القشيرية ، ١ : ٥٩ الطبقات الكبرى ، ٨٦ - ٩٢ : ٢ من أعلام التصوف الإسلامى - طه سرور .

أعلام التصوف فى القرن الثالث :

وفى هذا القرن ظهر كثيرون من أئمة التصوف ، من بينهم :

١ — ذوالنون المصرى (١٥٥ - ٢٤٥ هـ) صوفى جليل ، وإمام كبير ، وشخصية فذة بين أعلام الصوفيـة .

يقول ذو النون المصرى : إن حقيقة التوحيد أن تعلم قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا علاج ، وصنعه لها بلا مزاج ، وعلة كل شىء صنعه ولا علة لصنعه ، وما فى وهمك فالله بخلافه ، ويقول أيضا : معرفة الله على ثلاثة أوجه : معرفة التوحيد وهو لعامة المؤمنين ، والثانية معرفة الحجة والبيان وهى للعظماء والحـــكماء والبلغاء ، والثالثة معرفة صفات الوحدانية والفردانية وهى لأولياء الله وأصفيائه (١) .

وهذه الأفـكار ليست فيها بساطة تعابير صوفية القرن الأول أو الثانى الهجرى مثـلا ، إنمـا نلاحظ هـذا الاتجاه إلى فلسفـة التصوف ، واستخراج أفـكار جديدة من حقائقه مشوبة بأسلوب الفلسفة ، تصطنع منهجا خاصا فى البحث والتعبير (٢) .

كان مولده بأخميم وهو نوبى الأصل (٣) وحدث عن مالك والليث وابن لهيعة وروى عنه الجنيد وآخرون ، وكان أوحد وقته علما وورعا

---

(١) من مخطوطة فى الـكلام على البسملة - فى مكتبة المؤلف .

(٢) راجع عنه : ٨ و٩ الرسالة القشيرية طبع القاهرة ١٣٤٦ هـ ، وراجع الـكواكب الدرية للمناوى جـ ١ ص ٢٣٠ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٢٨٣ ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ، ٦٠ و ٦١ : ١ الطبقات الـكبرى للشعرانى ، و ٥٠٣ الفهرست لابن النديم ، و ص ٤٠ التراث الروحى للمؤلف .

(٣) وفى دائرة المعارف الإسلامية أن أبويه نوبيان .

وحلما وأدبا ، وأخذ عن السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور وعن فحول الزهاد والعلماء ، وكان يقول فى فاطمة النيسابورية : فاطمة أستاذتى (١) ، وروى عن الشافعى وكثير من الأئمة . ويقول ذو النون فى التصوف الإلهى (٢) :

أموت وما ماتت إليك صبابتى ... ولا قضيت من صدق حبك أوطارى
مناى المنى كل المنى أنت لى منى ... وأنت الغنى كل الغنى عند إقصارى
وأنت مدى سؤلى وغاية رغبتى ... وموضع شكواى ومكنون إضمارى
تحمل قلبى فيك ما لا أبثه ... وإن طال سقمى فيك ، أو طال إضرارى
وبين ضلوعى منك نورك قد بدا ... ولم يبد باديه لأهلى ولا جارى
وبى منك فى الأحشاء داء مخامر ... فقد هد منى الركن وانبث أسرارى
أنرت الهدى للمهتدين ولم يكن ... من النور فى أيديهم عشر معشار
أنلنى بعفو منك أحيا بقربه ... أغثنى بيسر منك يطرد إعسارى

وكان يقول : إياك أن تكون للمعرفة مدعياً أو للزهد محترفاً أو بالعبادة متعلقاً ، وفر من كل شىء إلى ربك ، ويقول : كن عارفاً خائفاً ، ولا تكن عارفاً واصفاً . .

ويقال إن ذا النون وعقبة وعمرو بن العاص فى قبر واحد (٣) ؛ وكان ذوالنون رأس طائفة الصوفية كما يقول جامى (٤) فالكل قد أخذ عنه وانتسب إليه ، وكان قبلة مشايخ ، وهو أول من فسر إشارات الصوفية ، وتكلم فى هذا الطريق ، وذكره صاحب النجوم (٥) الزاهرة فقال عنه : إنه كان أول من

---

(١) ٥٦ : ١ الطبقات الكبرى (٢) ٣١ : ١ قصة الأدب فى مصر للمؤلف .
(٣) ٤١٣ : ٩ دائرة المعارف الإسلامية ، قد كشف قبر ذى النون حديثا فى « البساتين » .
(٤) ٢٦ وما بعدها نفحات الأنس . (٥) ص ٥٣ : ٧ النجوم الزاهرة .

تكلم فى مصر فى الأحوال ومقامات أهل الولاية ، وينسب لذى النون كتاب اسمه « العجائب » (١) .

وجماع مذهب ذى النون وملتقى خصائصه فى مسائل ثلاث هى: الطريق إلى الله وتحليله إلى عناصره العملية والروحية، والمعرفة ، والمحبة(٢) ... وكان صاحب مذهب أخص خصائصه التحليل والتعليل والتأويل (٣) .

وقد ترجم له المناوى فى كتابه « الكواكب الدرية » (٤) ؛ ولذى النون مقالة طويلة عن الأولياء والأبدال وصفتهم (٥) .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية(٦) إنه كان ذا تأثير قوى على أهل مصر، وإنه كان ـ كما ورد فى كتاب نفحات الأندلس ـ أول من تعاطى علانية التعاليم الصوفية، وكان يقول: للحديث رجال وشغلى بنفسى استغرق وقتى(٧).

٢ ـ السرى السقطى : خال الجنيد وأستاذه وتلميذ معروف الكرخى

---

(١) ص ٤٢٠ جـ ٩ دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) ٤٢٢ : ٩ المرجع نفسه .

(٣) ٤٣٠ : ٩ المرجع نفسه .

(٤) ٢٢٣ - ٢٣١ : ١ الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية .

(٥) ١٣ - ٥ ١ : ١ حلية الأولياء لأبى نعيم المتوفى عام ٤٣٠ هـ طبع القاهرة سنة ١٩٣٤ .

(٦) ص ٤٠٩ المجلد التاسع دائرة المعارف وما بعدها .

(٧) الطبقات ، وراجع عن ذى النون : صفة الصفوة ٢٨٧ - ٢٩٣ : ٤، وسير أعلام النبلاء جـ ٨ ق ١ ورقة ١٤٢ ، وطبقات الصوفية ١٥ ، وشذرات الذهب ١٠٧ : ٢ ، ومرآة الجنان ١٤٩ : ٢ ، وتاريخ بغداد ٣٩٣-٣٩٧ : ٨ ، والرسالة القشيرية ص ١٠ ، والبداية والنهاية ٣٤٧ : ١٠ ، وفيات الأعيان ١٢٦ : ١ ، ودائرة المعارف الإسلامية ، ٩٣ - ١٠١ : ٢ أعلام التصوف الإسلامى ، ٤٠ - ٤٧ التراث الروحى تأليف محمد عبد المنعم الخفاجى .

(٥٧٤ هـ) وهو أول (١) من تكلم فى التصوف ببغداد .

٣ — بشر الحافى (٢٢٧ هـ) .

٤ — الحارث المحاسبى (٢٤٣ هـ) .

٥ — شقيق البلخى (٢٥١ هـ) .

٦ — أبو يزيد البسطامى (٢٦١ هـ) .

٧ — أبو سهل التسترى (٢٨٣ هـ) (٢) .

٨ — أبو القاسم الجنيد ، سيد الصوفية وإمامهم (٢٩٧ هـ) ، وكان يقال : ثلاثة لا رابع لهم : الجنيد ببغداد ، وأبو عثمان الحيرى بنيسابور ، وابن الجلاء بالشام (٣) .

---

(١) ١ : ٦٣ الطبقات الكبرى .

(٢) انتهت زعامة التصوف فى بغداد إلى سهل كما يقول السلمى ، وفى عهده تقارب الفقهاء والمتصوفة ، وكانت لشخصية سهل الفضل الأكبر فى هذا التقارب ، فقد كان رضوان الله عليه أحرص الناس على أن تكون رسالة التصوف خالية نقية من الكلمات المجنحة التى تحتمل التأويل ، وتفتح أبواب الجدل ، وعلى أن يلتزم الصوفية فى مواجيدهم وأذواقهم حرفية الكتاب والسنة .

وإلى سهل تنتسب المدرسة السلمية وهى المدرسة الوسطى فى المنهج الصوفى وكان أنبغ تلاميذ سهل فى هذه المدرسة أبو طالب المكى صاحب كتاب « القوت » وهو أحد أعمدة التصوف الكبرى . وعلى صاحب القوت تتلمذ الإمام الجنيد ، وعلى كتاب القوت تتلمذ حجة الإسلام الغزالى ، حتى ليرى بعض المؤرخين أن الغزالى قد استهدف فى كتابه الأحياء ، كتاب القوت ، ونسج على منواله ، واستفاد بمادته وهديه وبيانه ، وحسب سهل فى التصوف أن تنجب مدرسته : صاحب القوت ، والإمام الجنيد ، وحجة الإسلام الغزالى .

(٣) ١٩ الرسالة القشيرية .

٩ — أبو حمزة البغدادى مات قبل الجنيد ، وكان أحمد بن حنبل يقول فى المسائل : ماتقول فيها ياصوفى(١) .

١٠ — أبو سعيد الخراز (٢٧٩ هـ) من أهل بغداد وصحب ذا النون والسقطى والحافى ، وقيل إنه أول من تكلم فى الفناء والبقاء (٢) .

الصوفية فى القرن الرابع الهجرى :

ومن أشهرهم : الحلاج (٣٠٦ هـ) ، وأبو على الروزبارى (٣٢٢ هـ) ، وأبو عبد الله الروزبارى (٣٦٩ هـ) ، والشبلى (٣٣٤ هـ) ، وجعفر الخواص (٣٤٨ هـ) ، وأبو الحسن الحصرى (٣٧١ هـ) ، وكان شيخ الصوفية فى العراق ولم ير مثله فى زمانه ، والإمام أبو نصر السراج الطوسى صاحب اللمع (٣٧٨ هـ).

أعلام الصوفية فى القرن الخامس :

ومن أشهرهم : أبو عبد الرحمن السلمى (٤١٢ هـ) ، صاحب طبقات الصوفية ، وأبو القاسم القشيرى صاحب الرسالة القشيرية (٣٧٦—٤٦٥ هـ) ، والإمام الغزالى صاحب الإحياء (٤٥٠ — ٥٠٥ هـ) وعبد القادر الجيلى (٤٤٧ — ٥٦١ هـ) .

وفى القرن السادس :

ظهر الإمام الشاطبى (٥٣٨ — ٥٩٠ هـ) وعبد الرحيم القنائى (٥٩٢) ، وأحمد الرفاعى (٥٧٠ هـ) ، والسهروردى الشامى (٥٣٩ - ٥٨٧ هـ) .

---

(١) ٢٤ المرجع نفسه .
(٢) ١ : ٧٨ الطبقات الكبرى .

وفى القرن السابع :

ظهر السيد أحمد البدوى (٥٩٦ - ٦٧٨ هـ) ، وإبراهيم الدسوقى (٦٣٣ - ٦٧٦ هـ) ، وأبو العباس المرسى (٦١٦ - ٦٨٦ هـ) ، وجلال الدين الرومى (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ) ، وفريد الدين العطار الشاعر الفارسى المشهور وقد توفى فى سن السبعين عام ٦٢٧ هـ ، والسعدى الشيرازى (٦٠٦ - ٦٨٩ هـ) ، وحافظ الشيرازى ، وابن الفارض (٥٧٦ - ٦٣٢ هـ) ، ومحيى الدين بن عربى (٥٦٠-٦٣٨ هـ) وشرف الدين البوصيرى (٦٠٨-٦٩٥هـ) ، والشيخ عز الدين ابن عبد السلام (٥٧٧ - ٦٦٠ هـ) ، وأبو الحسن الشاذلى (٥٩٣ - ٦٥٦ هـ) ، وابن عطاء الله السكندرى (٦٥٨ - ٧٠٩هـ) ، والسهروردى (٦٣٢هـ) ، وابن سبعين الأندلسى (٦٦٩ هـ) ، وابن دقيق العيد (٦٢٥ - ٧٠٢ هـ) .

وفى القرن الثامن :

ظهر تقى الدين السبكى (٧٥٦ هـ) ، والبلقينى (٧٨٥ هـ) . وغيرهما .

وفى القرن التاسع :

ظهر شمس الدين الحنفى (٨٤٧ هـ) والسيوطى (٨٤٩ - ٩١١ هـ) وكان الشعرانى يلقبه شيخ الإسلام[1] .

وفى العاشر :

زكريا الانصارى (٩٢٦هـ) ، وشمس الدين الدمياطى (٩٢١ هـ) ، وشهاب الدين السنباطى (٩٥١هـ) ، والشعرانى (٨٩٨ - ٩٧٣هـ) .

---

(١) ٢ : ١٢٥ الطبقات الكبرى .

الباب الثانى

الفصل الأول

الأدب الصوفى أدب إسلامى رفيع

١ — للصوفيين على اختلاف طبقاتهم ، وعلى مر العصور أدب إسلامى رفيع ، ومجال واسع فى النثر والشعر ، وباع طويل فى كل أغراض الأدب ، ومنزلة عالية فى التجديد فى معانى الأدب وأخيلته وأساليبه .

ويحتوى الأدب الصوفى على عاطفة صادقة ، وتجربة عميقة ، وطالما كانوا يحافظون فى شعرهم على الوحدة العضوية للقصيدة ، وعلى الفكرة والمضمون مع الاهتمام كذلك بالصورة والشكل .

٢ — وتتعدد مذاهب الأدب وتياراته المعاصرة ، وتتباين دوافعه واتجاهاته تباينا كبيراً ، ومن الواضح فى آدابنا العربية اليوم أنها لا تمثل مذهباً فكرياً معيناً ، كما أنها لا تمثل مذهباً فنياً بعينه ؛ ولقد ساد الأدب العربى فى العصر الجاهلى الطابع الفردى والقبلى ، من حيث اصطبغ فى عصر صدر الإسلام وما يليه بصبغة إسلامية إنسانية تمثل مذهباً مستقلا ، فالأفكار والروح الإسلامية قد بدأت تفرض وجودها على الأدب والأدباء ، مما يدل على سيادة مذهب إسلامى فى الأدب . . . وإذا كانت قد بقيت بعض التأثيرات والنزعات الجاهلية فى آداب الإسلاميين ، وبقيت الصور الجاهلية مستعملة عند أغلب الأدباء ، ولم تلبث النزعات القبلية أن فرضت نفسها من جديد على الأدب نفسه ، واختفى الطابع الإسلامى الذى كنا نجده فى أمثال

شعر حسان ، وفى نثر صدر الإسلام ، وحل محله طابع عقلى واجتماعى فى أدب العباسيين . فإن الأدب الإسلامى بدأت تتضح معالمه شيئا فشيئا ؛ وبخاصة بعد أن ظهر الأدب الصوفى ، الذى يعد من أروع صور الأدب الإسلامى .

وفى العصر الحديث لم يستطع الأدب أن يمثل تيارا بعينه ، ولم ينطق عن فكرة خاصة ، إنما تعددت مناحيه الفكرية تعددا كثيرا ، وأدى ذلك إلى اضطراب الأدب العربى فى مفاهيمه ونوازعه ومناحيه اضطرابا شديداً ، وأصبح لا يمثل لونا خاصا ولا طابعا معينا ، وبخاصة فى عصرنا الراهن الذى نجد فيه فى الأدب تيارات كثيرة متضاربة بعضها قديم وبعضها حديث ، وبعضها شرقى وبعضها غربى ، وبعضها واقعى وبعضها رومانسى الخ .

فإذا ما أردنا أن ننشىء أدبا إسلاميا جديداً فإنه يتعين علينا أن نبدأ من حيث بدأ الصوفيون أدبهم ، وأن نعود إلى القرآن الكريم ، لنتفهم أصول دعوته ، ولتمتلىء نفوسنا بجليل روحانيته ، ولنتعمق فى فهمه ودراسته ، ولنستلهم من عبره وعظاته القدرة على مجابهة الحياة ومعاناة مشكلاتها ؛ وعندئذ نستطيع أن نفخر بأننا نعمل من جديد لتحقيق طابع إسلامى فى أدبنا المعاصر .

وهذا الطابع يتمثل التراث الإسلامى كله ويصور وجودنا الإسلامى المعاصر تصويرا كاملا ويعبر عن الأهداف والنزعات الإنسانية التى هى مفهوم ديننا وكتابنا الحكيم ، ويترجم عن أحلامنا وآمالنا وأهدافنا فى مستقبل أفضل ويستلهم البطولات الإسلامية القديمة والحاضرة ، ويستوحى حضارة شعوب الإسلام ويستهديها ويعبر عن إيماننا بحياة روحية سامية وعن حبنا العميق للذات الإلهية إلى غير ذلك من مقومات الطابع الإسلامى فى الأدب .

ولسوف يكون لمثل هذا الطابع صدى عميق فى حياتنا الراهنة ، وفى حياة شعوب الإسلام كافة . ثم لاننسى مالمثل هذا الطابع من قيمة فكرية وتوجيهية عالية ، وماله من غايات إنسانية رفيعة .

٣ — وإن النزعة الإسلامية فى الأدب لابد أن توجد من جديد، لتنطق بما يجيش فى نفوسنا من آمال وآلام ولتصور الواقع العربى الإسلامى تصويرا حقيقيا ، فترسم لنا صورة كبيرة للوطن الإسلامى المنهوب «فلسطين» وكفاح الجيل العربى المعاصر من أجل استرداده ، وترسم كذلك صوراً أخرى لحركات التحرر ، ولاسترداد الإنسان العربى لحريته وكرامته وإرادته ، وللعمل الوطنى الشريف فى سبل عزة وسيادة الشعوب العربية الإسلامية ، ولآمال هذا الجيل فى تحقيق وحدة كاملة شاملة تربط الإنسان العربى بأخيه الإنسان فى نطاق من التعاون وتبادل الخبرات والثقافات .

وكما كان هرون الرشيد يقول للسحابة القادمة فى الأفق محملة بالرى والماء : « أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك » ، سوف يعود المجد الإسلامى العربى مرة أخرى ليستطيع القائد الموجه لدول الإسلام أن يقول ذلك من جديد ، لدول تضمها وحدة الصف ، وتجمع بينها وحدة الهدف .

وإذا كانت الحضارة الإسلامية القديمة قد عبرت عن مبادىء جديدة ، وصورت كفاح الأجيال العربية المسلمة من أجل حاضرها ومستقبلها ، وترنمت بالحرية والبطولة وإرادة الإنسان وانتصاره ، وبالعزة والمجد لكل الأفراد والجماعات والأمم .. فإن حضارتنا العربية المعاصرة جديرة منا بكل التفات واهتمام ، فيسجلها أدبنا ، ويصورها بواقعها الراهن ، وبطموحها الشامخ ، إلى حيث الكبرياء الوطنى والقومى ؛ فأدبنا لابد أن يعبر عن نزعاتنا الإسلامية الرفيعة ، ولابد أن يكتسى بطابع إسلامى مميز .

فى ذلك كله صورة الماضى والحاضر والمستقبل ، وفيه الأمل المنشود الملهم للغد المشرق ، وفيه ربط لاتجاهاتنا الحاضرة بالإسلام، الذى يعد أول ثورة تحررية كبرى دعت إلى العدالة والتكافل والإخاء والمساواة والحرية بين الناس كافة ، وإلى الروحية العالية .

٤ — وإذا كان درس الأدب العربى درسا استنبطه المستشرقون ونقلناه عنهم ، فقد أخذناه كما أرادوه ، ولم نطوره نحن بعد كما نريد ، عنوا فيه بأدب المجون ، ولم يعنوا بأدب الصوفية بل أهملوه واطرحوه ، مما أدى إلى نسيان هـــذا التيار العظيم ؛ التيار الصوفى الروحى فى أدبنا العربى ، وإلى جحوده .

ويعلل زكى مبارك سر إهمال الأدب الصوفى بأن الصوفيـة كانوا قد انحازوا جانبا عن صحبة الأدباء ، وأن الأدباء كانوا قد أقبلوا على الصور الحسية إقبالا شغلهم عن الأدب الذى يصور أحوال الأرواح والقلوب ، فظنوا أدب الصوفية بعيـدا عن المجال الذى تسابقوا فيه ، مجال التشبيب والوصف والحماسة والعتاب ؛ ولو أمعن نقاد الأدب والبلاغة فى آداب الصوفية ، لاتخذوا منه شواهد فى التشبيهات والمجازات ، ولرأوا فيه كلمـات متخيرة تصلح نماذج لإصابة المعنى والغرض (١) .

فإذا ماعدنا اليوم باعث من شخصيتنا ومقوماتنا إلى دراسة الأدب الصوفى ، فإننا نعود لتفهم الشخصية الإسلامية تفهما كاملا ، ولوضع نماذج جديدة من الفكر الإسلامى ، يمثلها أدب الصوفيين شعره ونثره .

---

(١) ١ : ١١٣ التصوف الإسلامى .

الفصل الثانى

غزارة الأدب الصوفى

الأدب الصوفى هو أدب الصوفيين الذين كتبوه ودونوه وخلدوه فى آثارهم ، شعرا ونثرا ، حكمة ونصيحة وموعظة ومثلا وعبرة .

وقد تناول الصوفيون فى أدبهم الكثير من دقائق الحكمة والتجربة والفكر والمعانى والأخيلة ، وأعمق مشاعر الإنسان ؛ وحفل أدبهم بروائع المناجاة والحب الإلهى .

ويتحدث بعض الصوفية بأسلوب رمزى عن الصوفيين الكبار ، فيقول :

« الجنيد » إمام فى الشرع والتصوف « والحسن البصرى » متكلم سنى ، وسلفى صوفى « وبشر الحافى » سلفى متبع وصوفى متشرع ، ومثله « أبو طالب المكى والهروى ، والقشيرى » عالم صوفى تشرع قبل أن يتشرف ، « والحلاج » محب للحقيقة لم تحنكه الشريعة ، « وابراهيم بن ادهم » متشرع ورع وصوفى من أهل الفتوة ، « والقاشانى » شيعى تصوف ، ولما تعرف شطح ولم يتشرف ، ولم يشفع له شرح النصوص فى أن يكون من أهل الخصوص ، وهو من مؤسسى « اخوان الصفا » وقد « شوش » فى التشريع فما استوفى ولا وفى ، « وابن الفارض » محقق غمره الحب ، واستغرقه السكر ، « وابن عربى » عالم متعرف ، وأديب متسام ، وفيلسوف متصوف لم يرسخه الاتصال ولم تحكمه الحال ، « والغزالى » إمام فى الشريعة والحقيقة ، « والشاذلى » ولى تمكن ، وعالم تحقق وصديق تلطف ، وزاهد تأدب ، وأديب بحضرة الحق

تشرف، و «المرسى» ولى عمرى وعالم صوفى ، و «ياقوت» صوفى مجذوب، وعامى محبوب . «وابن عطاءالله» صوفى تعرف ، وسالك تصرف ، ووعاء للمقام والحال ، وظرف للحكمة والجمال «وابن عجيبة» أمى علمه الله مسالك قربه واصطفاه ، «والرفاعى» ولى محقق وصوفى عالم وعالم عامل ، «والجيلانى» بحر مخطوف عن نفسه قد استغرقه الحب بمعناه وحسه ، «والبدوى» موحد مجذوب ، وخاطب مخطوب ، «والدسوقى» وليد مجذوب ، ورجل فى الله محب ومحبوب ، «وعبد الرحيم القنائى» آنية للوفاء ، ومصباح ملىء بالنور والسناء ، ورائد من أهل الاجتباء ، «والجبلى عبد الكريم» عصفور أراد أن يغرد فتشرد ، وقد يشفع له فى الوصول تفانيه فى حب سيدنا الرسول .

ولقد كان الصوفيون فى أول الأمر يطلق عليهم الزهاد والنساك والعباد والقراء والفقراء والسائحون ، وكان فيهم الكثير من أعلام البيان والأدب والشعر(١) .

وكان الحسن البصرى الإمام الورع الزاهد المعروف مشهوراً بجودة البيان ، وبلاغة اللسان ، ووفرة المعانى ، وهو إمام فى الزاهدين ورأس فى الصوفيين ، ورائد المعتزلة والمتكلمين ، وقال شيخ من أهل المدينة ما كنت أريد أن أجلس إلى قوم إلا وفيهم من يحدث عن الحسن ، وينشد للفرزدق(٢) .

وإذا كان نهج البلاغة للإمام على بن أبى طالب من أوائل النماذج التى يمكن أن نعدها مشربة بروح صوفى ، فإن أدب الحسن البصرى هو من صميم هذا الأدب .

ويعتبر الحسن البصرى مؤسسا المذهب البصرى فى التصوف ،

---

(١) ٦٨ ومابعدها : ١ التصوف الإسلامى لزكى مبارك .

(٢) ٣ : ١١٣ البيان والتبيين .

وكان يرأس جماعة من الصوفية ومن أهل الفقه (١) والكلام .

وتوفى(٢) الحسن سنة ١١٠هـ، وأخذ التصوف عن الحسن حبيب العجمى، وأخذه عن حبيب أبو سليمان داود الطائى (توفى سنة ١٦٠هـ) ، وأخذه عن داود أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى، وأخذه عنه أبو الحسن السرى السقطى (توفى سنة ٢٥٧ هـ) ، وأخذه عنه إمام هذه الطريقة ومظهر أعلام الحقيقة أبو القاسم محمد بن الجنيد وأصله من نهاوند ، ومنشؤه العراق ، وتفقه على أبى ثور ، وصحب الشافعى ، ثم صحب خاله السرى ، وأبا الحارث المحاسبى وغيرهما، وكلامه وحقائقه مدونان فى الكتب وتوفى سنة ٢٩٧هـ وقبره ببغداد وهو رأس وإمام المدرسة البغدادية فى التصوف ، ثم انتشر مذهب الصوفية وذاع فى كل مكان ، وكثرت رجاله ، وتعددت طبقاته ، واتسعت بيئاته ومدارسه ومذاهبه حتى اليوم .

ويقول ابن السبكى فى طبقاته « .. إن المتصوفة هم أهل الوجدان والعبارة» ويرى الجرجانى أن من كمال الجمال البلاغى ، أن تكون مادته الخير والفضيلة ، وليس(٣) هناك من أدب تجمعت فيه كل هذه الخصائص ، التى اصطلح عليها القدامى والمحدثون ، والشرقيون والغربيون ، مثل الأدب الصوفى ، فهو أدب الوجدان الحى المتقد باشراقات الوجد ومواجيده .

وهو نماذج للفضيلة والخير ، تهتف بها لحونه وتنطق بها كلماته ؛ وهو الأدب العاطفى الحار فى مناجاته وابتهالاته وسبحاته ، أدب فنى أصيل ابتدع فن أدب الحب الإلهى ، بل أدب الحب الكونى ، الحب لكل شىء فى الوجود ، حب الجمال المطلق السارى فى كل ذرة أبدعها المبدع الأعظم .

---

(١) ٢٨ المدخل إلى التصوف الإسلامى ـ لمحمود أبو الفيض المنوفى .
(٢) ص ٥٣ المدخل للمنوفى .
(٣) ١ : ٤٤ أعلام التصوف الإسلامى ـ طه سرر .

وهو أدب موضوعى ، يستهدف رسالة فى علم النفس والأخلاق والتربية ، ولا يستطيع أن يحلق حول قممها سواه .

فالحديث عن أهواء النفس الظاهرة والخفية ، وشهوات القلب الواضحة والمضمرة ، ونوازع الخير والشر ، وما يترقرق بينهما من صور وألوان تمتزج حيناً وتفترق أحياناً ، تراث صوفى عجزت الفلسفة قديمها وحديثها عن أن تنازعه ألويتها .

وهو وحده الذى امتلك الإبداع الأعلى الذى صنع الشخصية الخلقية بصبغته ، وأسمعنا فى جرسها ألحان الملائكة أورادا وتسبيحا . وأنجب لنا الصور الإيمانية المتعالية فى مثالياتها الصاعدة إلى الأفق الأعلى الذى تلتمع فيه البروق وتفنى على حوافيه ماديات البشرية وأهواؤها ، وإن كان هذا الأدب الشامخ لم يأخذ مكانته فى الدراسة وحظه من البحث حتى اليوم ، وبذلك حيل بين نهضتنا وبين أنبل ماصنعت الأقلام الإسلامية ، ففقدنا بذلك الذخيرة الحية التى نخوض بمادتها معركة الحياة .

وإنها لمأساة فى حق الأدب أن يظل هذا الإبداع الفنى الرفيع بعيدا عن الدارسين فى علوم النفس والتربية وعن الباحثين فى الأدب ، لقد تجاهل مؤرخو الآداب العربية هذا اللون الصوفى الروحى لأنهم ساروا على نهج المستشرقين فى دراسة الأدب العربى ، والمستشرقون لا يحبون أن يكون هناك أدب إسلامى هادف ، ومن ثم البيئات الأدبية النابتة فى قلب النهضات العربية تتجاهل الأدب الصوفى لأنهـــا ترنو بعيونها إلى الغرب لا إلى أنفسنا وبيئتنا وتراثنا .

يقول الأستاذ أحمد أمين متحدثاً عن الأدب الصوفى(١) : « أدب غنى فى شعره ، غنى فى فلسفته ، شعره من أغنى ضروب الشعر وأرقاها ، وهو

---

(١) ظهر الإسلام ج ٤ ص ٧١ - ٧٢ - ٧٣ .

سلس واضح وإن غمض أحيانا ، وفلسفته من أعمق أنواع الفلسفة الإلهية وأدقها ، ومعانيه فى نهاية السمو ، تقرؤها فتحسب أنك تقرأ معانى رقيقة عارية لا ثوب لها من الألفاظ ، خياله رائع يسبح بك فى عالم كله جمال وعواطف صادقة يعرضها عليك كأنها كتاب إلهى تقلبه أنامل الملائكة ، يقدس الشعراء فيه الحب . ولا بد أن يكون الإنسان هائما أيضاً مسلحاً بكثير من الأذواق والمواجيد والحالات التى يعتقدها المتصوفة حتى يسايرهم فى الفهم » ، « والتصوف . كله وله وحنين وإخلاص ، وحيرة مصدرها الإعجاب والحب والعاطفة ، يحب فيحس عذاب الحب أو نعيمه ، ثم يخرج عذاب نفسه أو نعيمها شعراً سلساً دافقاً مملوءاً بالألم والأنين والاطمئنان :

أشكو وأشكر فعله فاعجب لشاك منه شاكر

فهذه عاطفة صادقة امتلأت بالحب وأورثت الشكوى والألم ، ثم إن النفس عن كل هذا راضية ، بل هى تسمو إلى أسمى منازل التضحية ، وتجود بالحياة فى سبيل هذا الغرام وحرصاً عليه :

إن الغرام هو الحياة فمت به صبا فحقك أن تموت وتعذرا

« وقد أضفى عليه جمال الموضوع جمالا فى الحسن وحسنا فى التوقيع والنغم الموسيقى . والخيال فيه بعيد واسع كله روعة وجلال . سجعه لطيف وموسيقاه رنانة . وكثيراً ما يعتمد على المحسنات البديعية والتزويق اللفظى استعانة بذلك على تسهيل المعانى العميقة والأفكار العالية، وهو غنى فى ألفاظه وأساليبه ، هائم مع الروح فى عالم اللانهائية وحائر على الدوام لا يستقر حتى يفنى فى هيامه » .

ويقول الدكتور زكى مبارك (١) : « إى والله كان للصوفية أدب هو أعلا وأشرف من أدب البحترى والمتنبى وأبى العلاء ولكن طافت بالناس

(١) التصوف الإسلامى ج ١ ص ٣٥ .

طائفة من الجهل فتوهموا أن لاصلة بين الأدب والدين وراحوا يقفون فيما يتخبرون عند الكتاب والشعراء الذين ألفوا الروح المدنية ، واتخذوا غذاءهم من الكؤوس المترعة والوجوه الصباح ؛ ويندد بالدارسين فيقول ، إن كل همهم أن ينقلوا ماقال الفرنجة فى علم النفس ومارأينا واحداً منهم فكر فيما كتب الصوفية عن الأهواء والشهوات ، وأصول الخير والشر والضر والنفع ، ولو رجعوا مرة إلى إحياء علوم الدين ، أو حكم ابن عطاء الله ، لعرفوا أن هناك مصـــادر للدرس تصلح للنقل والاقتباس ؛ فلم يكتب علم للحق ولوجه الحق على نحو ماكتب الصوفية فى الأخلاق ، فالرجل الصوفى حين يؤلف فى أدب النفس يجمع بين الصورة القولية ، والصورة العملية ، فهو شعلة من اليقظة الروحية فيما يعمل وفيما يقول » .

إن الأدب الصوفى أدب غزير المادة ، واسع الآفاق ، ممتد الجوانب ، وهو أدب أجيال اعتنقت حب الله مذهبا ، وآمنت بالمثل الروحية العليا منهجا لها فى الحياة .

ولقد قال الصوفيون فأكثروا ، فى الحب الإلهى وكان ابن الفارض (٦٣٢ هـ) يلقب بسلطان العاشقين ، وفى الخمريات التى رمزوا بها للوصل فى مدارج السلوك . فهذا ابن الفارض يقول :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة ⁂ سكرنا بها من قبل أن تعرف الكرم

ويقول السهروردى :

لاتسقنى وحدى فما عودتنى ⁂ أنى أضن بهـــا على جلاسى

أنت الكريم ولايليق تكرما ⁂ أن يعـدو الندماء دور الكاس

وغزل الصوفيين يكاد يحرق القلب والروح ، سمع أبو القاسم الجنيد (٢٩٧ هـ) صوتا يغنى :

إذاقلت : أهدى الهجرلى حلل البلى ... تقولين : لولا الهجر لم يطب الحب
وإن قلت : هذا القلب أحرقه الهوى ... تقولى : بنيران الهوى شرف القلب
وإن قلت : ماأذنبت ؟ قلت مجيبة : ... حياتك ذنب لايقاس به ذنب

فصعق (١) ..

وقال الصوفيون فى المناجاة الإلهية فما قصروا ، ويقول الشاعر جلال الدين الرومى فى كتابه « المثنوى » ، معبرا عن حبه الإلهى الذى يسمو على مافى الدنيا من جاه ورغبات : « يامن هو عزاء النفس فى ساعة الغم والحزن ، يامن فيه غناء الروح عند مرارة الفقر والعوز ، يامن نحوه أولى وجهى فى حياتى ووجودى ، يامن هو أنسى وفرحتى وسرورى ، لو أنى وهبت ملكا لايبلى ، أو أن كنزا خفيا فتح لى يحوى كل مافى الوجود ، لسجدت لك روحى ووضعت وجهى فى الثرى وصحت قائلا : ليس لى مراد غير حبك كل شىء يزول ويفنى ويذهب إلى العدم ، ويبقى نور الحب خالدا سرمديا » .

ومن ضراعات الخواص ، وهى إشراقات ملهمة ، للقلوب الضارعة المتبتلة :

« اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب قوى عليه بدنى بعافيتك ، ونالته يدى بفضل نعمتك ، وانبسطت إليه بسعة رزقك ، واحتجبت فيه عن الناس بسترك ، واتكلت فيه على أناتك وحلمك ، وعولت فيه على كريم عفوك .

اللهم إنى أعوذ بك ، أن أقول قولا حقا فيه رضاك ، ألتمس به أحدا سواك ، وأعوذ بك أن ازين للناس بشىء يشيننى ، وأعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك ، وأعوذ بك أن يكون أحد من خلقك أسعد بما علمتنى منى » .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ١٤٧

وللصوفيين من الرمزية والأدب الرمزى ماليس لغيرهم ، رمزية فى المذهب وفى الأسلوب وفى المعانى وفى الأخيلة مما لاتصل إليها روائع الاستعارة والكناية والتمثيل والتشبيه ، ومما يحار فيها الفهم والعقل والوهم والخيال ، ومذهبهم هو الغموض ، ولهم اصطلاحات تقوم مقام اللغة ، ونقرأ الكثير منها فى : اللمع للطوسى ، والرسالة القشيرية والفتوحات المكية لابن عربى والحكم لابن عطاء الله وقوت القلوب لأبى طالب المكى ، وغيرها ، ومعانيهم الغامضة لايكاد الفهم يصل إلى عتباتها ، وكما يقول ابن عربى (٦٣٨هـ) مؤلف كتاب « الفتوحات المكية » :

تركنا البحار الزاخرات وراءنا   فمن أين يدرى الناس أين توجهنا ؟

ويقول ابن الفارض المصرى :

فإن قيل لى صفها فأنت بوصفها
خبير أجل عندى بأوصافها علم
صفاء ولاماء ولطف ولاهـوى
ونور ولا نار وروح ولا جسم

ويقول شاعر :

سقونى وقالوا لاتغن ، ولوسقوا   جبال حنـين ماسقونى لغنت

وكناياتهم ورموزهم مشهورة .

ويقول الشيخ الحفنى أحد شيوخ الأزهر فى القرن الثانى عشر الهجرى يوما لأحد تلاميذه فى أسلوب الأدب الشعبى الصوفى : «أحدتك حدوتة ، بالزيت ملتوتة ، حلفت ما آكلها ، حتى يجى التاجر ، والتاجر فوق السطوح والسطوح عاوزة سلم ، والسلم عند النجار ، والنجار عاوز مسمار ، والمسمار عند الحداد ، والحداد عاوز بيضة ، والبيضة فى بطن الفرخة ، والفرخة

عاوزة قمحة ، والقمحة عند القماح ، والقماح عاوز فلوس ، والفلوس عند الصريف ، والصريف ، عاوز عصافير ، والعصافير فى الجنة ، والجنة عاوزة حنة الخ . وهى حكاية غريبة وفيها تسلسل ورمزية واضحة .

وقد زاد الشيخ الحفنى على ذلك فشرح هذه الأغنية على طريقة الصوفية ، ففسر التاجر بالمرشد الكامل ، والمربى الواصل ، والتاجر فوق السطوح فى مستوى عال ، والسطوح لا يمكن صعوده إلا بمعراج الخ .

وقد كان الشيخ الحفنى من كبار الصوفيين فى عصره (١) ، ولعل الشيخ يرمز بهذه القصة إلى أن الصوفى الكامل يعاود سلوك الطريق مرة بعد مرة بعد أخرى حتى يصل إلى الله وينال درجة المقربين .

وأكثر الصوفية معروفون بسعة الاطلاع وكثرة الحفظ ، وكان لهم وجود أدبى ملحوظ ، وكلامهم كثير جدا ، ولهم اصطلاحات كثيرة للغاية (٢) ، منها : المريد والسالك ، والمقام ، والحال ، والأنس ، والفناء والبقاء ، والبسط والقبض ، والبعد ، والقرب ، واليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، وعلم اليقين ، والمحو والاثبات ، والتجريد والمجاهدة ، والتجلى والمسامرة ، والفتوح والغربة والوصل ، ومقام الوصل هو الذى قال فيه الغزالى بعد أن أدركه :

فكان ماكان مما لست أذكره ... فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وهو المقام الذى يقول فيه الشاعر الصوفى :

---

(١) راجع ٣ : ٩٤ - ٩٦ الازهر فى ألف عام للمؤلف .

(٢) راجع اصطلاحات الصوفية لمحيي الدين بن عربي فى ذيل كتاب « التعريفات » للجرجانى

وعاينت أسرارا تسامت بذاتها
وإنى أرى شرحى لها فوق طاقتى

ومن هذه الاصطلاحات : لفظة المدام ، التى ضرب بها المثل حتى ليقول عبد القاهر التبريزى :

نصيحة عاشق ونديم راع　　وعزة موكب ومدام صوفى(١)

وسوى ذلك من المواصفات والاصطلاحات .

وسوف نستعرض الأدب الصوفى ، ونشير إلى خصائصه ، لونا لونا ، وخاصية بعد خاصية ، إذا ما وفق الله وأعان .

وقد أثر التصوف الإسلامى فى الفكر العربى تأثيرا كبيرا ، وعد هو الفلسفة الروحية فى الإسلام ، وامتد تأثيره إلى الفكر الأوربى فألف المستشرق الأسبانى بالاسيوس كتابا ضخمـا عن تأثر أكبر المتصوفين فى الديانة الكاثوليكية وهو يوحنا الصليب فى القرن السادس عشر بمعتقدات الطريقة الشاذلية (٢) ، وأثبت المستشرق الأسبانى أن يوحنا كان يستعمل اصطلاحات ومجازات لا يخفى أن منبعها شاذلى أندلسى فى القرن الخامس عشر وذلك لعالم اسمه الوندى يطلب من المريد أعلى درجة الإخلاص والإيثار (٣) .

---

(١) ١ : ١٧٠ الغيث المنسجم .
(٢) منسوبة إلى أبى الحسن الشاذلى (٥٩٣ - ٦٥٦ هـ) .
(٣) راجع ص ١٦ « تأثير الفلسفة الإسلامية فى تطور الفكر الأوربى » بقلم المستشرق أرنست بانرت - مطبعة الهدف بالموصل بالعراق .

القسم الثانى من الكتاب

الباب الأول

النثر الأدبي عنـــد الصوفية

الفصل الأول

من حديث النثر الصوفى

١ — النثر الصوفى باب واسع جدا، عريض وطويل للغاية ، وهو خلاصة عقول مؤمنة متصوفة منذ بدء التصوف حتى اليوم ومن البدهى أننا فى حديثنا هذا عن الأدب الصوفى نثره وشعره على السواء لانغفل خصائص الأدب العربى فى مختلف العصور والبيئات ، ولا نطرح أحكام الدرس الأدبى الذى قد عرفناه من قبل فى دراسة عصور الأدب ، من اختلاف فى الإيجاز والإطناب ، أو من ميل إلى الصنعة البديعية أو إعراض عنها ، وغير ذلك ؛ ولكن لأن هذه الأمور معروفة من دراسة الأدب العربى بمعناه العام ، فسوف لانعرض لها ونكتفى بالمميزات الخاصة التى ميزت الأدب الصوفى عن غيره .

ولطول العصور الأدبية التى يمثلها الأدب الصوفى ، وهو يبدأ من القرن الثانى الهجرى حتى القرن الرابع عشر الذى نعيش فيه ، فسنغفل ذكر الخصائص العارضة ، والمميزات التى تعود إلى الكم ، ونكتفى بالخصائص الجوهرية ، وبما يعود إلى الكيف وحده .

وقد نشأ فن علمى جديد سمى فن المناقب ، وقد ذاعت كتب المناقب ذيوعا كبيرا ، وهى تتعرض لمناقب الأولياء والصالحين من الصوفية وبخاصة فى عصرى المماليك والأتراك .

كما ذاعت كتب طبقات الصوفية وكثر التأليف فيها .

٢ — ولا شك أن الأدب الصوفى فى أكثره ـ كما سبق أن أشرنا إليه ـ

أدب يعبر عن الإسلام ويستمد منه ويرجع إليه ، وما نلمحه فيه من معان فلسفية ، وحكم غير عربية حينا ، ومن تأثر بالثقافات الدخيلة المترجمة إلى العربية حيناآخر ، فإنما ذلك راجع إلى ثقافات الصوفيين التى كانوا يقرأونها . وإلى نفس المتصوف وحده ، وليس لذلك من أثر فى الأدب الصوفى إلا اتساع المعانى أمامه ، وتناوله لكل الأفكار القديمة والطريقة التى يسوغ له ذوقه أن يتناولها .

فذو النون المصرى كان صاحب ثقافة واسعة ، وإلمام بالفلسفة اليونانية ، وبخاصة الأفلاطونية الحديثة [١] .

وكان أبو العتاهية يدعى العلم بفلسفة اليونان[٢] ، وكان الحلاج يعرف الكيمياء والطب [٣] ، وذا معرفة واسعة بالمسيحية واليهودية [٤] .

والجيلانى [٥] (٨٢٠ هـ) يستعين بالفلسفة اليونانية بين الحين والحين ، فى كتابه « الإنسان الكامل » ، كما كان يفعل ابن عربى [٦] من الأخذ من الفلسفة اليونانية أيضا .

فعبد الكريم الجيلانى أو الجيلى يدور كتابه حول مايجب أن يعرف المريد من ألوان الثقافة الصوفية ، وهو يستعين فيه بالفلسفة اليونانية

---

(١) ٣٣٠ التصوف فى الشعر العربى - عبد الحكيم حسان .

(٢) راجع ٤ : ٢٩ الأغانى .

(٣) ٢ : ٢٥٥ شذرات الذهب .

(٤) ٣٤٩ التصوف فى الشعر العربى .

(٥) راجع : ٢: ٢٢٠ التصوف الإسلامى - وأهل بغداد يسمون الجيلانى . الجيلى ، وهو أشهر من فطنوا لمغزى القول فى وحدة الوجود .

(٦) ١٦ الأدب الصوفى - الاستاذ محمود العقدة .

من حين إلى حين ، كما يفعل ابن عربي (١) .

ويقول الإمام الغزالي في الاحياء : الصوفية ظفروا بحسن المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله ، فقاموا بما أمرهم به ، ووقفوا عما نهاهم عنه .

ويقول السهروردي في « عوارف المعارف » : بعد عهد الرسول وخلفائه الراشدين مالت خلافة النبوة إلى أن تكون دولة سياسية وملكا عضودا ، وانقسم أهل ذلك العصر عدة أقسام : قسم باشر هذه الفتن وزج بنفسه فيها طلبا للخلافة وولاية الحكم ، وقسم حاربهم ورأى نفسه أحق بها منهم ، وقسم محايد رأى أن من شرائط الإسلام ألا يزج بنفسه في هذه الفتن وأن يحايدها حتى تنجلي ، مثل ابن عمر ، وأبي ذر ، وعكاشة » .

ومنهم أيضا من زج بنفسه في غمارها وهم الشيعة وقد أسموا أنفسهم بالعلويين تعصبا لعلي ، وعنهم تفرعت الطائفة الإسماعيلية وهي من أخص الشيعة تطرفا ، وقد أسموا أنفسهم باطنية ، وبذا حصل اللبس ، وأدمجهم من لا يعلم ماهية التصوف في زمر الصوفية .

وكان ممن يعتبرون صوفية في عصر بني أمية وما بعده : الزهاد ، والعباد ، والنساك : كعمر بن عبد العزيز وغيره من أئمة الفقه والشريعة : كمالك ، وابن حنبل ، والشافعي ، وأبي حنيفة النعمان ، وابن سيرين ، وبشر الحافي . ولأولئك جميعا أحوال جليلة وأقوال تنسب اليهم في التصوف ولغيرهم جمع كبير ... فتسميه تصوفا إسلاميا إنما هو تصوف إسلامي سدى ولحمة بصرف النظر عن الثوب الذي أدخله هؤلاء الدخلاء على شريعة الإسلام وهم متسمون بالفعل ببعض طقوس وتقاليد شرائعهم التي لم

---

(١) ١ : ٢٢٠ التصوف الإسلامي لزكي مبارك .

يتجردوا منها تماما ؛ ومبنى التصوف الإسلامى الخالص يشترط فيه : أن يكون مؤسسا على صريح الكتاب وخالص السنة ، وهذا شرطه عند أهله الأوائل الذين منهم الصحابة والتابعون وتابعوهم وأئمة هذا الدين ممن ذكرنا أسماءهم .

فالتصوف الإسلامى علم لما فى الشريعة الإسلامية من أحوال ناتجة عن الإسلام والإيمان: كالإخلاص، واليقين ، والتقوى ، والمراقبة ، وغير ذلك ، ولانستبعد فى الوقت نفسه أن يدخل على التصوف الإسلامى بعض التصوف الأجنبى ، ولكنه لا يكون تصوفا إسلاميا خالصا كالشرط الذى درج عليه من قدمنا من أئمة المسلمين . وكان تصوفهم تصوفا إسلاميا خالصا ؛ وأصول التصوف محفوظة فى كتب أهله الذين استنبطوه من الشريعة كتابا وسنة وفقها . وكان مستمده الأول : القرآن كما قدمنا ، وكما سنورده من أدلة ، وكان قدوة أهل التصوف فيه محمدا وآله ، وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان ، ولم يغيروا فى أصول دينهم ـ ظاهره وباطنه ـ شيئا .

والسلف من الصوفية . كانوا زهادا صالحين أهل علم وعمل ، وقال ابن الجوزى : وقد كان أوائل الصوفية يقرون بأن التعويل على الكتاب والسنة وروى بإسناده عن أبى يزيد البسطامى (٢٦١هـ) أنه قال : من ترك قراءة القرآن ، والتقشف ولزوم الجماعة ، وحضور الجنائز ، وعيادة المرضى وادعى بهذا الشأن، فهو مبتدع قال الحسين النورى (٢٩٥ هـ) لبعض أصحابه من رأيته يدعى مع الله عز وجل حالة تخرج عن حد علم الشرع فلا تقربنه ، ومن رأيته يدعى حالة لايدل عليها دليل ، ولا يشهد لها حفظ ظاهر، فاتهمه على دينه ، وعن أبى بكر الشفاف : من ضيع حدود الأمر والنهى فى فى الظاهر حرم مشاهدة القلب فى الباطن[١] .. ويقول ابن الجوزى : وما كان

---

(١) ١٦٨ تلبيس إبليس لابن الجوزى .

المتقدمون فى التصوف إلا رءوسا فى القرآن والفقه والحديث والتفسير ، وذكر أنه إذا طهر القلب انصبت عليه أنوار الهدى ، فينظر بنور الله [١] وأن الله عز وجل يلهم الإنسان الشيء كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم : « إن فى الأمم محدثين ، وإن يكن فى أمتى فعمر » ، وأن المراد بالتحديث إلهام الخير ، وذكر أن هذا الإلهام إنما هو ثمرة العلم والتقوى [٢] ، وكانوا يقولون : ما أخلص عبد قط أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه [٣] .

ويصف الشعرانى [٤] التصوف بأنه عبارة عن علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة ، فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها [٥] .

ونحن لسنا مع مذهب من يرجع المعانى التى تناولها الصوفيون إلى أدب أو تصوف الفرس والهند واليونان مع القرآن والسنة والذوق ، ولكننا نقول : إن توافق الأفكار بين شاعر وشاعر وكاتب وكاتب أكثر تبادرا إلى الذهن من محاولة إثبات الأخذ ، ولو صح أن صوفيا أخذ معنى حكمة قديمة وعبر عنها بأسلوبه فليس فى ذلك ضير لأن الثقافات تتصل فى نفس الأديب والشاعر بشعور وبلا شعور ، ولأن من طبيعة اختلاف العصور والثقافات أن يأخذ المتأخر من المتقدم ، ونحن لانبحث عن العوارض

---

(١) نفس المصدر ص ٣٢٣

(٢) نفسى المصدر ص ٣٢٢

(٣) الرسالة القشيرية ص ٩٦

(٤) ١ : ٤ الطبقات الكبرى للشعرانى .

(٥) راجع ص ٦٢ الأدب الصوفى - الأستاذ محمود العقدة .

المشتركة بين الأدب الصوفي وغيره ، وإنما نبحث عن المميزات الأصيلة له ، والسمات الواضحة فيه .

وللصوفية الكثير من الأدب العالي في المناجاة الإلهية ، يقول ذو النون المصري (٢٤٥ هـ) : إلهي ما أصغيت إلى صوت حيوان ، ولا إلى حفيف شجر ، ولا خرير ماء ، ولا ترنم طير ، ولا تنعم ظل ، ولا دوي ريح ، ولا قعقة رعد ، إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك ، دالة على أنه ليس كمثلك شيء .

ويقول زكي مبارك :

ومن أنت يا ربي ؟ أجبني ، فإنني رأيتك بين الحسن والزهر والماء

وللصوفية الكثير من أدب الحوار البليغ ، والحكمة الصادقة ، والتجربة الواسعة والخبرة العميقة بالحياة والنفس الإنسانية .

« قيل لابن السماك : ما الكمال ؟ فقال : الكمال أن لا يعيب الرجل أحداً بعيب فيه مثله ، حتى يصلح ذلك العيب من نفسه ، فإنه لا يفرغ من إصلاح عيب حتى يهجم على آخر فتشغله عيوبه عن عيوب الناس ، وأن لا يطلق لسانه ويده حتى يعلم أفي طاعة أم في معصية ؟ وأن لا يلتمس من الناس إلا ما يعلم أنه يعطيهم من نفسه مثله ، وأن يسلم من الناس باستشعار مداراتهم وتوفية حقوقهم ، وأن ينفق الفضل من ماله ، ويمسك الفضل من قوله » .

ولهم كذلك الفخر العظيم الذي يكاد يكون دونه فخر الخلفاء والملوك ، ولهم النصيحة والموعظة البليغة التي تخشع منها القلوب وتعنو الجباه والوجوه .

وقد نشأ فن المدائح النبوية على أيدي الصوفيين ، الذين احتفوا به ، وأكثروا ونبغوا فيه ، ومنهم الإمام البوصيري .

الفصل الثانى

ألوان النثر الصوفى

النثر الصوفى الذى أثر عن الصوفية من القرن الثانى حتى القرن الرابع عشر الهجرى نثر كثير ، وألوانه عديدة ، منها الألوان المـــألوفة ، ومنها الألوان الجديدة غير المألوفة ، التى لم يتناولها غير الصوفية ؛ ولم تؤثر إلا عنهم.. وفى هذا الفصل سنتحدث عن الألوان المألوفة أى التى لم يختص بها الصوفية وحدهم ، وفى الفصول التالية سنتحدث عن الألوان غير المألوفة .

الرثاء : أثرت عن الصوفية مراث بليغة رائعة ، تدل على روح وذوق صوفى ، وإلهام عميق ، ومواقف الصوفية فى الرثاء كثيرة ، ولم تر من اهتم بها ممن جمعوا المتخير فى الرثاء ، وانظروا كيف تكون جودة المعنى وقوة السبك ومتانة الديباجة فى قول ابن السماك يوم مات داود بن نصر الطائى (١٦٥ هـ : ٧٨٢ م) [(١)] . وهو رثاء فريد عرف قائله كيف يحدد من خصائص من بكاه (٢) :

« إن داود رحمه الله نظر بقلبه إلى ما بين يديه من آخرته ، فأعشى بصر القلب بصر العين ؛ فكان كأنه لا ينظر إلى ما إليه تنظرون ، وكأنكم لا تنظرون إلى ما إليه ينظر ، فأنتم منه تعجبون ، وهو منكم يعجب ، فلما رآكم راغبين مذهولين مغرورين ، قد أذهلت الدنيا عقولكم ، وأماتت بحبها قلوبكم ، استوحش منكم ، فكنت إذا نظرت إليه نظرت إلى حى وسط أموات .

---

(١) ١٦ الرسالة القشيرية ، ١ : ٢٤٩ الوفيات .

(٢) راجع ١ : ٣٩ التصوف الإسلامى لزكى مبارك .

ياداود : ما أعجب شأنك بين أهل زمانك ، أهنت نفسك ، وإنما تريد إكرامها ، وأتعبتها وإنما تريد راحتها ، أخشنت المطعم وإنما تريد طيبه ، وأخشنت الملبس وإنما تريد لينه ، ثم أمت نفسك قبل أن تموت ، وقبرتها قبل أن تقبر ، وعذبتها ولما تعذب ، وأغنيتها عن الدنيا لكيلا تذكر ، رغبت نفسك عن الدنيا ، فلم ترها لك قدرا إلى الآخرة ، فما أظنك إلا وقد ظفرت بما طلبت ، كان سيماك فى سرك ولم يكن سيماك فى علانيتك ، تفقهت فى دينك وتركت الناس يفتون ، وسمعت الحديث وتركتهم يحدثون، وخرست عن القول وتركتهم ينطقون ، ولا تحسد الأخيار ولا تعيب الأشرار ، ولا تقبل من السلطان عطية ، ولا من الإخوان هدية ، آنس ماتكون إذا كنت بالله خاليا ، وأوحش ماتكون آنس مايكون الناس ، فمن سمع بمثلك ، وصبر صبرك ، وعزم عزمك ، لا أحسبك إلا وقد أتعبت العابدين بعدك ، سجنت نفسك فى بيتك فلا محدث لك ، ولا جليس معك ، ولا فراش تحتك . ولا ستر على بابك ، ولا قلة يبرد فيها ماؤك ، ولا صفحة يكون فيها غذاؤك وعشاؤك ، مطهرتك قلبك ، وقصعتك تورك (١) .

ياداود : ما كنت تشتهى من الماء بارده ، ولا من الطعام طيبه ، ولا من اللباس لينه ، بلى ولكن زهدت فيـــه لما بين يديك ، فما أصغر ما بذلت ، وما أحقر ماتركت فى جنب ما أملت ، فلما مت شهرك ربك بموتك . وألبسك رداء عملك ، وأكثر تتبعك ، فلو رأيت من حضرك عرفت أن ربك قد أكرمك وشرفك ، فلتتكلم اليوم عشيرتك بكل ألسنتها ، فقد أوضح ربك فضلها بك (٢) .

وفى هذا النص نجد شيئا جديدا ليس مألوفا عند الأدباء ، هو ذاتية

(١) التور : إناء صغير .
(٢) ٢ : ٣١٥ و ٣١٦ عيون الأخيار .

التعبير ، أى أن الأسلوب أسلوب شخصى لصاحبه ليس له شبيه بالأساليب التى يستعملها غيره ، الألفاظ مختارة سهلة واضحة ، كل كلمة مستعملة فى موضعها وفى نفس معناها ، وفى المقام الذى يجب أن تستعمل فيه ، والمعانى قد اختير منها ما يلائم المقام والغرض ، وهى مفصلة تفصيلا ، مع أن موقف الرثاء فى أغلب الأمر موقف ارتجال لا إعداد .

ولعمر بن ذر فى رثاء ابنه :

ياذر ، والله ما بنا إليك من فاقة ، ومابنا إلى أحد سوى الله من حاجة ؛ ياذر شغلنى الحزن لك عن الحزن عليك ؛ اللهم إنك وعدتنى بالصبر على ذر ، صلواتك اللهم ورحمتك ، وقد وهبت ماجعلت لى من أجر على ذر لذر ، فلا تعرفه قبيحا من عمله ؛ اللهم قد وهبت له إساءته إلى فهب لى إساءته إلى نفسه ؛ فإنك أجود وأكرم [١] .

٢ — الحكمة : وهى لون من ألوان الأدب العربى ، وقد مزجها الصوفيون بصبغة روحية عالية ، وأكثروا من الحديث فيها ، وحكم ابن عطاء الله السكندرى مشهورة ، وهى مطبوعة فى كتاب يعد سفرا من أسفار الأدب الرفيع ، وكانت تدرس فى الأزهر الشريف [٢] ، ومن شراحها الرندى والشرقاوى ، وهى من الأدب الرمزى العميق .

والحكم العطائية تتناول كل شئون النفس والأخلاق والتصوف ، وهى منثورة ، ومنها مثلا :

العطاء من الخلق حرمان ، والمنع من الله إحسان .

متى أعطاك أشهدك بره ؛ ومتى منعك أشهدك قهره ، فهو فى كل ذلك متعرف إليك ، ومقبل بوجود لطفه عليك .

---

(١) ٣ : ٧٥ البيان والتبيين .

(٢) راجع ١ : ١٣٦ التصوف الإسلامى لزكى مبارك .

إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه .

ربما فتح لك باب الطاعة ، وما فتح لك باب القبول ، وربما قضى عليك بالذنب فكان سببا فى الوصول .

ومن حكم ابن عطاء الله السكندرى أيضا :

لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطوى بها رحلتك ، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها .

جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته ، وأنك جوهر قد تنطوى عليك أصداف مكنوناته .

إنما وسعك الكون من حيث ثبوت جثمانيتك ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك .

أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون فاذا شهدته كانت الأكوان معك .

لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية إنما مثل الخصوصية كاشراق شمس النهار ظهرت فى الأفق وليست منه ، تارة تشرق أنواره على ليل وجودك ، وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك : فالنهار ليس منك وإليك ولكنه وارد عليك .

دل بوجود آثاره على وجود أسمائه وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه وبثبوت أوصافه على وجود ذاته إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه .

لا يعلم قدر أنوار القلوب والأسرار إلا فى غيب الملكوت كما لا تظهر أنوار السماء إلا فى شهادة الملك .

وجدان ثمرات الطاعة عاجلا بشر العاملين بوجود الجزاء آجلا .

ما كان ظاهر ذكر إلا عن باطن شهود .

أشهدك من قبل أن يستشهد فنطقت بإلهيته الظواهر وتحققت بأحديته القلوب والسرائر .

أكرمك بكرامات ثلاث: جعلك ذاكرا له ولولا فضله لم تكن له أهلا لجريان ذكره عليك وجعلك مذكورا به إذ حقق نسبته لديك ، وجعلك مذكورا عنده فتمم نعمته عليك .

رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده . ورب عمر قليلة آماده كثيرة امـــداده .

من بورك له فى عمره أدرك فى يسير من الزمن من الله تعالى مالا يدخل تحت دوائر العبارة ، ولا تلحقه الإشارة .

الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لاتتوجه إليه ، وتقل عوائقك ثم لاترحل إليه .

الفكرة سير القلب فى ميادين الأغيار .

الفكرة سراج القلب فإذا ذهبت فلا إضاءة له .

الفكرة فكرتان فكرة تصديق وإيمان وفكرة شهود وعيان فالأولى لأرباب الاعتبار والثانية لأرباب الشهود والاستبصار .

وحكم ابن عطاء الله السكندرى تهدف كما يقول « الرندى » : إلى إيضاح طريق العارفين والموحدين ، وإبانة مناهج السالكين والمتجردين ، وتهدف كذلك إلى الكلام فى إسقاط التدبير عن الخلق أجمعين ، إذ لايجوز فى رأى ابن عطاء الله ، وكما هو واضح من كتابه «التنوير فى إسقاط التدبير» أن يفكر الإنسان فى تدبير أى أمر من أمور الدنيا ؛ لأن الله سبحانه قد انفرد بتدبير شئون هذه الحياة وما للمرء فيها من شىء سوى الاذعان والتسليم بكل ما تقضى به المقادير ، وأن الدعاء لايغير القضاء فلا يستجيب

الله لأحد إلا فيما قدره له وقضى به عليه، وأن كرامات الأولياء لا تتحقق فى شىء مما لم يكن مقدرا حصوله أزلا .

وكثير من حكمه تهدف أولا وبالذات إلى تصفية القلوب بذكر المعبود وتطهير الأجسام بفعل الخـــير واجتناب الآثام، هذا من حيث المعانى والأغراض .

أما من حيث اللفظ والتعبير والأسلوب وطريقة التصوير فإن ألفاظ ابن عطاء الله فى أكثرها متخيرة منتقاة أغلبها جيد فصيح قد خلت من كل لفظ ثقيل، وكلام سقيم .. وأسلوبه يتسم بطابع التحليل والتعليل ومع ذلك فهو مستو قويم . وذلك كله مع قوة التعبير وروعة التصوير .

لحكم ابن عطاء الله تشتمل من حيث المعنى أو المضمون على طائفة من النظريات والأفكار بعضها صوفى ، وبعضها فلسفى ، وثالثها فقهى ورابعها بعض مسائل من علم الكلام . أما من حيث الأسلوب وصيغ الكلام وكيفية التناول وطرق التعبير، فإنها - أعنى حكم ابن عطاء الله - تختلف فى ذلك كله تبعا لاختلافها فى المعانى والاغراض فإذا كان موضوع الحكمة يتصل بالأحكام الشرعية فإنه يصطنع أسلوب الفقهاء، وهو - كما هو معلوم - يتسم بطابع الجدال والاستدلال، وإن كان الموضوع مسألة كلامية فانه يصطنع أسلوب علماء الكلام وأسلوبهم كما هو معروف قائم على التعليل والتحليل وذكر الحجج وإقامة البراهين، وإن كان الموضوع حالة نفسية أو حقيقة باطنية مما انفرد بمعرفته والكلام فيه أهل التصوف فانه حين ذاك يستخدم أسلوب الإيحاء النفسى وطريقة التعبير الصوفى لأن ذلك هو الأسلوب الذى يصطنعه أهل التصوف فى التعبير عن آرائهم وما يريدون الافضاء به مما يحصل لهم عن طريق الكشف والابانة عن الحقائق والأسرار ... ونستطيع أن نتبين بوضوح خصائص حكم ابن عطاء الله فيما يلى :

١ — تقصر الحكمة وتقل كلماتها إذا ما كان الموضوع مسألة صوفية

أوحقيقية باطنية ، أما إذا كان الموضوع مما تكلم فيه أهل الشرع متكلمون أو فقهاء فإن الحكمة عند ذلك تطول وتكثر فيها الكلمات .

٢ — غزارة المعنى ، وبعد المرمى ، وتعدد المقصود .

٣ — جودة الكلمات وكثرة المحسنات .

٤ — وضوح الأسلوب واستقامة التعبير .

٥ — عدم التعقيد فى المعانى وخلوها من الغموض والابهام .

٦ — كثرة المجازات والاستعارات والتخيل والتشخيص .

٧ — التأثر بأساليب الفقهاء والمتكلمين .

٨ — صدق الشعور وعمق الوجدان (١) .

وابن عطاء الله السكندرى الصوفى المصرى المشهور (٦٥٨ — ٧٠٩ هـ) من أشهر أعـــلام التصوف فى تاريخ مصر الثقافى والروحى وهو عربى الأصل مصرى الموطن اسكندرى المولد .

وكان من كبار تلامذة أبى العباس المرسى المتوفى عام ٦٨٦ هـ وأشهر حملة وأعلام المذهب الشاذلى الصوفى .

وكان مذهب ابن عطاء الله مع أهميته فى تاريخ مصر الصوفى والروحى والفكرى مجهولا أو شبه مجهول ، حتى نهض البـــاحث الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ، فكتب رسالة ضخمة عن ابن عطاء الله وفلسفته الصوفية ، تعد من أجل ما كتب من الدراسات العلمية عن التصوف وعن ابن عطاء الله .

وقد درس التفتازانى عصر ابن عطاء الله وحياته وتصوفه ومؤلفاته ومذهبه فى التصوف .

(١) راجع عدد شعبان من مجلة منبر الإسلام - د . على صافى حسين من مقال له عن صور « من الأدب الصوفى المصرى » .

وعرض آراءه فى النفس الإنسانية وآداب السلوك والمقامات والأحوال والمعرفة والصوفية .

وشرح منزلته فى التصوف المصرى . . كل ذلك فى استيعاب وفطنة ومنهجية فى البحث ، وعناية بالمراجع ، ودقة فى الاستنباط ، وجمع لشتى أطراف الموضوع وجوانبه العديدة ، مما يعد التفتازانى به سابقا مجددا فى ميدان البحوث الصوفية والروحية والفكرية .

وابن عطاء الله – كما يشرح التفتازانى ، ومع علو منزلته فى الصوفية – كان من كبار مفكرى عصره ومن الأساتذة الأعلام فى القرن السابع الهجرى .

وقد كان ابن عطاء الله بعد رحلته من الإسكندرية إلى القاهرة يلقى دروسه بالجامع الأزهر مازجا كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم ، فكثر تلاميذه ومريدوه . وكان لوعظه تأثيره فى القلوب ، وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطرائق . أما أبو الوفا مؤلف كتاب « ابن عطاء الله » ، فهو من سلالة صوفية تحتل مكانة رفيعة فى حياة مصر الروحية والفكرية ، وقد كان والده المرحوم السيد الأستاذ العلامة سماحة الشيخ محمد الغنيمى التفتازانى (١٨٩٣ – ١٩٣٦) من زعماء مصر وأعلام مفكريها ومصلحيها وقادتها ، وله تاريخ مشرق فى ميدان الجهاد الثقافى والصوفى فى حياة مصر الحديثة .

وقد اختار أبا الوفا منذ سنوات معهد ما كجيل للدراسات الإسلامية وشئون الشرق الأوسط بمونتريال بكندا ليحاضر فى الفلسفة الإسلامية فيه ، ودعته جامعة هارفرد وجامعة كمبردج ليعمل بهما ، وإنا لنهنىء التفتازانى بهذا المجهود الرائع ، والعمل الخصب المثمر ، ونتمنى له حظا طيباً فى حياته العلمية المديدة .

ومن أروع نماذج الحكمة الصوفية كذلك « فصوص الحكم لابن عربى » : وهو نماذج حية مبدعة مشرقة للفكر الصوفى ، وإذا كانت شطحات الجذب أدت بأصحابها – من أمثال أبى يزيد البسطامى والجنيد والحلاج – إلى ألا يروا فى الوجود غير الله ، فقال قائلهم : أنا الحق ! سبحانى ! ما أعظم شأنى ،

مافى جبتى غير الله !! إلى آخر هذه الشطحات ، فإن القرن السابع للهجرة قد شهد للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى (المتوفى سنة ٦٣٨ هـ) نظرية فلسفية فى الإلهيات خرجت به عن وحدة الشهود السالفة إلى «وحدة الوجود» فلم يقل بوحدته بالذات الإلهية ولا بفنائه فى حب الله كما قال سابقوه ، بل جهر بوحدة الله ومخلوقاته ! قال إن الله يجمع فى نفسه كل شىء ويحوى كل وجود ويظهر فى صورة كل موجود ! أصبح الوجود عنده حقيقة واحدة ، وما نراه فى الموجودات من تعدد وكثرة ليس إلا أثراً من آثار الحواس . والعقل لا يعجز عن إدراك الوحدة الذاتية للأشياء ! وقد لخص مذهبه فى الفتوحات المكية بقوله : سبحان من خلق الأشياء وهو عينها ! فجعل الخالق والمخلوقات شيئاً واحداً ، ولا يدرك هذه الوحدة إلا العارف ، يدركها بذوقه الفطرى وليس بتأمله العقلى .

ونظرية وحدة الوجود عند ابن عربى ، هى التى أثارت عند مريديه وعارفى فضله كل إعجاب وإكبار ، فسموه قطب الله ووليه والعارف به ، وأثارت عند خصومه والحاقدين عليه كل سخط وضيق ، فاعتبروه أكبر زنديق ومشرك .

وقد ظل مذهبه فى وحدة الوجود يضطرب فى صدره نيفا وأربعين عاما ، لم يجرؤ خلالها على الجهر به فى جملتـه ، ولم يخرجه فى صورة كاملة محكمة التأليف حتى صاغه فى أواخر أيامه فى كتابه « فصوص الحكم » الذى ضمنه المصطلح الصوفى لهذا المذهب ، وكان أعظم مؤلفـاته تشكيلا للعقيدة الصوفية فى عصره وفى العصور التى تلته .

وقد كان منهجه فى هذا الكتاب ، هو المنهج الذى عالج به سائر الموضوعات فى مؤلفاته التى بلغ عددها بضع مئات : انصبت كلها على التصوف لم تتجاوزه إلى غيره من ميادين البحث على غير ما جرت عادة المؤلفين فى عصره بوجه خاص . فقام كتابه على منهج صوفى مبنى على التصوير العاطفى واستخدام

الرموز والإشارات وأساليب الخيال فى التعبير ، منصرفا عن المنهج العقلى الذى يقوم على التحليل والتركيب على ما هو معروف .

والمعروف أن الصوفية لايخوضون فيما يخوض فيه الناس فى مسائل علم الظاهر ، وإنما يتكلمون عن حقائق العلم الباطن الذى يتلقونه عن الرسول وراثة من غير اكتساب ، وهى حقائق لايستقل بفهمها عقل ولا بالتعبير عنها لغة ، ولهذا قام أسلوبهم على الرموز والإشارات ، ومن هنا كانت الصعوبة التى يعانيها قراء كتبهم ، وكانت مزلة الساخطين عليهم حين يصرفون أقوالهم إلى غير معانيها ويحملونها مالا تطيق . وقد كان حظ ابن عربى من هذا الإبهام والاستغلاق كثيرا حتى صار مضرب المثل فى غرابة الطرق الملتوية التى يختارها للتعبير عن مذهبه . وكتابه « فصوص الحكم » شاهد على ذلك .

وعلى نمط الحكم لابن عطاء الله السكندرى نرى كتاب الحكم لعبدالله ابن علوى بن محمد الحداد الحسينى السنى الحضرمى (١) المتوفى فى القرن الحادى عشر الهجرى .

وفى وحدة الوجود يقول عبد الوهاب عزام فى كتابه « التصوف وفريد الدين العطار (٢) » : « ينبغى أن يفرق بين وحدة الوجود التى رآها بعض الفلاسفة من اليونان ووحدة الوجود فى رأى العطار وغيره من الصوفية ، فالفلاسفة يرون أن الروح والمادة وجود واحد ، والصوفية يفرقون بين الله والعالم ، ولكن يرون أن هذا العالم الظاهر لاوجود له حقا ، وإنما الوجود الحق لله ، فليس هو العالم ولا العالم هو » .

ونقل أنه جاء رجل صوفى إلى العلامة الصوفى السرهندى فحدثه عن

---

(١) علق عليه الشيخ حسنين مخلوف ، وهو مطبوع بمطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة

(٢) ص ٥٠ المرجع المذكور

رياضته الصوفية فقال : « السموات والأرض والعرش والنار والجنة أصبحت جميعا لا وجود لها عندى وحينماأنظر حولى لاأراها فى أى مكان، وإذا وقفت أمام شخص فلست أرى شيئاً أمامى ؟ بل إن وجودى أنا أصبح لا وجود له عندى ؟ إن الله جل جلاله هو الذى أرى ! ؟ » .

فأجابه الشيخ : « إن الوجد الذى وصفت لى يرجع إلى تقلب القلب تقلبا مستمراً ويبدو لى أن من يعانيه لم يمر بعد حتى بربع منازل القلب التى لا حصر لها ولابد له من أن يجتاز الأرباع الثلاثة الباقية حتى يتم رياضيات هذا المنزل الأول من منازل رياضة الباطن . وهناك منازل تسمى : الروح ، والسر الخفى ، والسر الأخفى ، ولكل منزلة من هذه المنازل التى يتألف منها مجتمعة مايسميه — عالم الأمر — أحوالها ورياضتها الخاصة بها ، حتى إذا مر طالب الحق بهذه المنازل فإنه يبدأ عندئذ يتلقى بالتدريج أنوار الأسماء الرياضية ، والصفات الإلهية ، ثم أخيراً يتلقى أنوار الروح الإلهية ثم يعرف بعد ذلك كيف يرى الحق والخلق » .

٣ — أدب الزهد فى الدنيا :

أدب الزهد فى الدنيا كثير فى آداب الصوفية ومؤلفاتهم ، والحديث عن الزهد كان من مقدمات التصوف فى الإسلام ، وبخاصة الزهد فى الدنيا ، ومن صور ذلك قول ابن القيم :

مثلت الدنيا بمنام ، والعيش فيها بالحلم ، والموت باليقظة ؛ ومثلت بمزرعة ، والعمل فيها بالبذر ، والحصاد يوم المعاد ؛ ومثلت بدار لها بابان ، باب يدخل منه الناس وباب يخرجون منه ؛ ومثلت بحية ناعمة الملمس ، حسنة اللون وضربتها الموت ؛ ومثلت بطعام مسموم ، لذيذ الطعم ، طيب الرائحة ، من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه ، ومن زاد على حاجته

كان فيه حتفه ، ومثلت بالطعام فى المعدة إذا أخذت الأعضاء منه حاجتها فحبسه قاتل أومؤذ (١) .

وهى صورة رائعة ، وحديث بليغ ، وكلام عميق بارع .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى (٧٠٩) :

مثال المهموم بأمر دنياه الغافل عن التزود لأخراه كمثل إنسان جاءه سبع وهو يريد أن يفترسه ووقع عليه ذباب فاشتغل بذب الذباب (٢) ودفعه عن التحرز من السبع،والحق أن هذا عبد أحمق فاقد وجود العقل ولو كان متصفا بالعقل لشغله أمر الأسد وصولته وهجومه عليه عن الفكرة فى الذباب؛ كذلك المهتم بأمر دنياه عن التزود للآخرة دل ذلك منه على وجود حمقه إذلو كان فيهما عاقلا لتأهب للدار الآخرة التى هو مسؤل عنها وموقوف عليها ، فلا يشتغل بأمر الرزق فان الاهتمام به بالنسبة للآخرة نسبة الذباب إلى مفاجأة الأسد وهجومه (٣) .

ويقول من قبل الصوفيين الإمام على بن أبى طالب فى كتاب « نهج البلاغة » يذم الدنيا :

إنما الدنيا منتهى بصر الأعمى ، لايبصر مما وراءها شيئا ، والبصير ينفذها بصره ، ويعلم أن الداروراءها ، فالبصير منها شاخص ، والأعمى إليها شاخص ، والبصير منها متزود ، والأعمى لها متزود (٤) . . الخ .

والزهد هوأساس الأحوال الرضية ، والمراتب السنية ، والمراد به الزهد فى الحلال الموجود ، وأما الحرام والشبهة فتركهما واجب ، والزهد فى الدنيا رأس كل خير وطاعة (٥) .

---

(١) ٣١٦ عدة الصابرين . (٢) أى بطرده .

(٣) ص ٤٨ تاج العروس لابن عطاء الله ، المطبعة العثمانية المصرية .

(٤) ١ : ٢٧ نهج البلاغة . (٥) ص ٤٦ اللمع .

٤ — أدب النصائح والوصايا :

وهو لون آخر من ألوان النثر الصوفى ، وهو غزير المادة ، رائع فى جملته فى التصوير والبيان ، ومن أقدم هذا اللون رسالة الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى الزاهد،فقد روى أن عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ـ لما تولى الخلافة ـ كتب إلى الحسن[١] البصرى ، أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رحمه الله :

اعلم ياأمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام[٢] كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف . ونصفة كل مظلوم ومفزع كل ملهوف . والإمام العادل ياأمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق الذى يرتاد[٣] لها أطيب المرعى ويذودها عن مراتع الهلكة . ويحميها من السباع . ويكنفها من أذى الحر والقر . والإمام العادل ياأمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده . يسعى لهم صغاراً . ويعلمهم كباراً . يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العـــادل ياأمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها،حملته كرهاً وربته طفلا ، تسهر بسهره وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته . والإمام العادل ياأمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح،تصلح الجوارح بصلاحه وتفسد بفساده،والإمام العادل ياأمير المؤمنين ، هو القائم بين الله و بين عباده،

---

(١) هو أبو سعيد بن يسار مولى زيد بن ثابت الأنصارى ، وكان الحسن من التابعين وكبرائهم ، وكان نسيج وحده فى الفصاحة والعلم والعبادة والورع ، وتوفى بالبصرة سنة ١١٠ هـ .

(٢) قوام الأمر : عماده ونظامه .

(٣) الارتياد : طلب الكلأ فى مواضعه .

يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إليه ويراهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم .

فلا تكن ياأمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد(١) العيال ، فافتقر أهله وفرق ماله ، واعلم ياأمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود (٢) ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟

واذكر ياأمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر ، واعلم ياأمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه . يطول فيه ثواؤك(٣) ويفارقك أحباؤك، ويسلمونك فى قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، واذكر ياأمير المؤمنين إذا بعثر (٤) مافى القبور ، وحصل(٥) مافى الصدور ، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فالآن ياأمير المؤمنين ـ وأنت فى مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل ـ لاتحكم ياأمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لايرقبون فى مؤمن إلا(٦) ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك . ولا يغرنك الذين يتنعمون

(١) التشريد : التفريق والطرد .
(٢) الحدود : العقوبات الرادعة .
(٣) الثواء : الإقامة أو طولها .
(٤) بعثر : أثير وأخرج .
(٥) حصل : جمع .
(٦) الإل : العهد .

بما فيه بؤسك ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك ، فلا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور فى حبائل الموت . وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت (١) الوجوه للحى القيوم » .

وهى رسالة تمتاز بنضارة الأسلوب وإشراقه وجماله وبلاغته وبوضوح المعنى ودقته وقوته . .

وبطش سليمان بن عبد الملك الأموى هو وحاشيته كان حافزا لأن يبرز من بين صفوف المتصوفة ، العابد الحر ، أبو نصر الطائى (١٦٥ هـ) فيحمل منسأته ويقتحم على سليمان بن عبدالملك قصره ويقول له : « سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن ، تأدية لحق الله تعالى ، إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضوا بسخط ربهم : وخافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ،فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً والأمة كسفا وخسفاً ، وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس عند الله غبنا من باع آخرته بدنيا غيره (٢) » .

ويقول صاحب شذرات الذهب ، تعقيباً على كلمات الطائى : « لقد كانت تلك الكلمات فى سبيل الله أزكى من الجيوش الواثبة ، فقد خنست بطانة سليمان ولم ترفع رأسها بشر حتى وفاته » .

ودخل الأوزاعى على عبد الله بن على العباسى فى الشام فقال :

« ياأوزاعى ، ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدى أولئك الظلمة عن البلاد والعباد ، أجهاد هو ؟ قال . فقلت : أيها الأمير ، سمعت يحيى بن سعيد

---

(١) عنا : خضع .

(٢) زهر الآداب جـ ١ صـ ٢٣٣

الأنصاري يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ماهاجر إليه » قال فنكت بالخيزرانة أشد ماكان ينكت وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم ، ثم قال : ياأوزاعي : ماتقول في دماء بني أمية ؟ فقلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » قال : فنكت بها أشد من ذلك ، ثم قال: ماتقول في أموالهم ؟ فقلت : إن كانت في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضا ، وإن كانت لهم حلالا فلاتحل لك إلا بطريق شرعي، قال فنكت أشد مما كان يفعل ، ثم قال : ألا نوليك القضاء ؟ فقلت إن أسلافك لم يكونوا يشقون علي في ذلك وإني أحب أن تتم ما ابتدأوني به من الإحسان، فقال : كأنك تحب الانصراف ، فقلت : إن ورائي حرماً وهم محتاجون إلى القيام عليهن وسترهن وقلوبهن مشغولة بسببي ، قال : وانتظرت رأسي يسقط بين يدي ، فأمرني بالانصراف فلما خرجت إذا رسول من ورائي ، وإذا معه مائتا دينار فقال : يقول لك الأمير :استنفق بهذه ، قال : فتصدقت بها ، وإنما أخذتها خوفا » (١) .

ودخل الصوفي العابد الإمام الأوزاعي على الخليفة العباسي الثاني المنصور. فقال له ، وهو من أدب النصح البليغ :

« إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذي أصبحت به ، والله سائلك عن صغيرها وكبيرها ، وفتيلها ونقيرها . ولقد حدثني عروة بن رويم

---

(١) حسن المساعي في مناقب الأوزاعي ص ٧٩ - ٨٢ .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مامن راع يبيت غاشا لرعيته إلاحرم الله عليه رائحة الجنة » ، فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظراً ، ولما استطاع من عوراتهم ساتراً ، وبالقسط فيما بينهم قائما ، لايتخوف محسنهم منه رهقاً ، ولامسيئهم عدوانا ، فقد كانت بيد رسول الله جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين ، فأتاه جبريل فقال : يامحمد . ماهذه الجريدة بيدك ؟ اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبا — فكيف من سفك دماءهم ، وشقق أبصارهم ، وأنهب أموالهم .

يا أمير المؤمنين ، إن المغفور له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده فهبط جبريل فقال : يامحمد ، إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك ، إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل إليك يا أمير المؤمنين ، ولو أن ثوباً من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لآذاهم ، فكيف من يتقمصه ؟ ولو أن ذنوباً من صديد أهل النار صب على ماء لآجنه (١) ، فكيف بمن يتجرعه ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف من سلك فيها ، ويرد فضلها على عاتقه .

واعلم أن السلطان أربعة : أمير يظلف نفسه وعماله فذلك له أجر المجاهد فى سبيل الله ، وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف . وأمير رتع ورتع عماله ، فذلك يحمل أثقالا وأثقالا مع أثقاله . وأمير يظلف نفسه (٢) ويرتع عماله ، فذاك الذى باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الأكياس (٣) .

---

(١) أى غير طعمه ولونه .

(٢) يظلف نفسه : يكفها .

(٣) عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٣٩ .

ومن أدب الوصية والنصيحة أيضاً قول ابن عطاء الله السكندرى (٧٠٩ هـ) :

ياعبد الله (١) : مثالك إذا سمعت الحكمة ولم تعمل بها كمثل الذى يلبس الدرع ولا يقاتل ، ألا فقد حصل النداء على سلعتنا (٢) فهل من مشتر؟قيمتك قيمة ما أنت مشغول به فإن اشتغلت بالدنيا فلا قيمة لك لأن الدنيا كالجيفة لا قيمة لها . أفضل مايطلب العبد من الله تعالى أن يكون مستقيما معه قال الله تعالى : إهدنا الصراط المستقيم ؛ فاطلب منه الهداية والاستقامة وهو أن تكون مع الله فى كل حال بالذى يرضاه لك وهو ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم عن الله سبحانه وتعالى .

من بذل صرف الود سقاه الله صرف الكرم، مثال السالك كمن يحفر على الماء قليلا حتى يجد الثقب فينبع له الماء بعد الطلب، ومثال المجذوب كمن أراد الماء فأمطرت له سحابة فأخذ منها مايحتاج اليه من غير تعب ، إذا أعطيت نفسك كل ما تشتهى وتطلب من الشهوات كنت كمن فى بيته حية يسمنها كل يوم حتى تقتله، ولو جعل فيك الروح من غير نفس لأطعت وماعصيت، ولو جعل فيك النفس من غير روح لعصيت وما أطعت ، ولذلك جعل فيك القلب والروح والنفس والهوى كالنحلة جعل فيها اللسعة والعسل فلذلك تتلون، فالعسل يبره واللسع يقهره فأراد الله أن يكسر دعوة النفس بوجود القلب ودعوة القلب بوجود النفس . ياعبد الله طلب منك أن تكون له عبداً فأبيت أن تكون إلا ضداً ، إقبالك على الله إفرادك له بالعبادة ، فكيف يرضى لك أن تعبد غيره، فلو أتيتنا تطلب العطاء منا ما أنصفتنا فكيف ترضى إذا أقبلت على من سوانا .. وقفت الدنيا فى طريق الآخرة فصرفت الوصول

---

(١) ص ١٧ تاج العروس لابن عطاء الله .
(٢) السلعة البضاعة .

إليها، ووقفت الآخرة فى طريق الحق فمنعت الوصول إليه (١) ، إن من لطف الله بك أن يكشف لك عن عيوب نفسك ويسترها عن الناس ، إذا أعطيت الدنيا ومنعت الشكر فيها فهى محنة ، فالمسلم من أسلم نفسه إلى الله بدليل قوله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ، إذا أحبك مولاك أعرض عنك أصحابك حتى لا تشتغل بهم عنه وقطع علائقك من المخلوقين حتى ترجع اليه . كم تطلب نفسك إلى الطاعة وهى تتقاعد ، إنما تحتاج إلى معالجة نفسك فى الابتداء فاذا ذقت المنة جاءت اختيارا فالحلاوة التى تجدها فى المعصية ترجع تجدها فى الطاعة . .

والوصايا والنصائح جمع وصية (٢) ونصيحة ، وأغلب الأمر فى النصيحة أن تكون من محكوم إلى حاكم ، ومن مرؤس إلى رئيس ؛ أما الوصية فإنها تكون من الإنسان إلى نده ، أو إلى من هو بمثابة ابنه فى الله . وقد يطلق اللفظان من باب الترادف على معنى واحد هو النصح والإرشاد والوعظ والتهذيب .

ووصايا لقمان لابنه فى القديم ـ قبل الإسلام ـ مشهورة ، وقد قصها الله عز وجل فى القرآن الكريم فى سورة لقمان . وفى الأدب الفارسى الكثير من الوصايا .

والصوفية يسلكون فى نصائحهم مسلك التعليل والتحليل ، وفى نهج

---

(١) معنى هذا أن الآخرة بما تقتضيه من الأفعال الصعبة على النفوس من الوقوف عند الحدود وتحرى الواجبات والخيرات كانت كالحائل دون الوصول إلى الحق .

(٢) راجع صورا من الوصايا الصوفية فى كتاب اللمع للطوسى (٢٣٤ ـ ٢٣٩ ـ اللمع) .

البلاغة للإمام على بن أبى طالب الكثير من الوصايا وهى تصلح نماذج لهذا اللون من الأدب الصوفى الذى نتحدث عنه .

ومن الوصايا الصوفية وصايا ذى النون المصرى وهى مشهورة(١) ونصائحه كثيرة جدا وفى فنون مختلفة من الأخلاق .

وهذه رسالة أبى السعود بن أبى العشائر فى النصيحة والتوجيه ، وكان قد بعث بها إلى بعض إخوانه ، وجاء فيها :

« السلام عليك يا أخى ورحمة الله وبركاته وبعد : فقد سألتنى أيها الأخ أن أدعو لك . والعبد أقل من أن يجاب له دعاء ، ولكن ندعو لك امتثالا فنقول : ألهمك الله يا أخى ذكره ، وأوزعك شكره ، ورضاك بقدره ، ولا أخلاك من توفيقه ومعرفته ، ولا وكلك إلى نفسك ، ولا إلى أحد من خليقته ، وكتبك عنده ممن وفى بعهده وصدق فى قوله وفعله وجعلك ممن أراد الله عز وجل تقريبه ، وجد فى الطلب بالصدق والأدب ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمتابعة والتصديق ، وأراد الدار الآخرة بالأعمال الصالحة ، واحتمال الأذى ، وترك الأذى . وجعلك من المستهدين ـ المكثرين ـ فى ذكر الله تعالى ، الوجلين من خشية الله تعالى ، المخلصين لله عز وجل ، الموحدين لله عز وجل ، المصدقين لله تعالى ، المؤثرين الله تعالى على أنفسهم ، المقدمين حقه على حقوقهم . الذين خلت بواطنهم من الحقد ، وقلوبهم من رؤية سوى الله ، ولم يتطلبوا من مولاهم غير الدين واليقين .

---

(١) راجع ١ : ٩٨ التصوف الإسلامى لزكى مبارك ، وراجع ترجمته فى كتابى « التراث الروحى » ، وفى كتاب « جامع كرامات الأولياء » ـ الجزء الثانى للنابلسى .

الذين لايستأثرون ولايزاحمون ، وعلى فقد غيره لايحزنون . الذين هم على جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم يشفقون ، وبهم يرفقون . الذين ينصحون المسلمين ولايفترون ، ويعرفون بالله وشرعه ولايعنتون ، وعن عيب من فيـــه العيب يغمضون ويسترون ، ولعورات المسلمين لايتتبعون .

الذين هم لله تعالى فى جميع حركاتهم وسكناتهم يراقبون . الذين يكون غضبهم لله تعالى . لالأنفسهم . ولايحقدون ، ولايتمنون السوء ولا يعتدون، ويكون رضاهم لله عز وجل من غير هوى . الذين لايأمرون إلا بما أمرت به الشريعة ، ولاينكرون إلا ما أنكرت الشريعة على حسب طاقتهم . الذين لا تأخذهم فى الله لومة لائم . ويبغضون الظلم من الظالم ، ويمقتون الظالم ولا يعظمونه ، ويسألون الله تعالى تعجيز الظلمة حتى لايظلموا ، أويتوب الله عليهم حتى يتوبوا .

الذين بما أنزل الله تعالى ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحكمون، الزاهدين فى الدنيا وفى الخلق ، المقبلين بكليتهم على الحق . الذين لايرون من مولاهم إلاما يرضونه ويستحسنونه ، ولايرون من أنفسهم إلاما يكرهونه ويستوحشونه .

وجملك يا أخى من الموحدين الذين لاشرك عندهم ، المنزهين الذين لاتهمة عندهم ، المصدقين الذين لاشك عندهم ، الذاكرين الذين لانسيان عندهم ، الطالبين الذين لافتور عندهم ، المتبعين الذين لا ابتداع عندهم ، المؤثرين الذين لاشفقة على نفوسهم عندهم ، القانعين الذين لاميل إلى السوء عندهم ، المسلمين الذين لامنازعة عندهم ، الراضين الذين لاسخط عندهم. الذين لايخطر ببالهم - لربهم - كيفية ولاخيال .

وجملك يا أخى من المحافظين على الطاعة ، التاركين للعادة . الذين

لا يرضيهم سوى مولاهم ، ولا يرتضون نفوسهم ، الذين لا يحقدون ولا يبغضون ، ويقتفون أثر الشارع وبه يقتدون ، وعلى جميع الصحابة يترحمون ، ولقرابة نبيهم يوادون ، وبفضل السلف يعترفون . الذين لا يبدعون المسلمين بآرائهم ولا بأهوائهم ولا يفسقونهم . الذين خلت بواطنهم من ظن السوء أو تمنيه لمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . الذين ليس فى بواطنهم لعباد الله إلا الشفقة والرحمة .

الذين لا تعجبهم زينة الدنيا ، ولا يرون عزيزها عزيزا ، ولا غنيها غنيا ، ولا ملكها ملكا ، ولا المستريح فيها مستريحا ، ولا الصحيح فيها معافى . الذين يشفقون على من أخذ الدنيا بحذافيرها لأنه ماحصل منها شيئا ينفعه .

الذين يطالبون نفوسهم بالحقوق لله ولعباده ، ولا يطالبون لنفوسهم إلا بما كتب الله لها . الذين لا يلحقهم هم لأجل محتوم أو رزق مقسوم ، ولا خوف على مخلوف مفوت .

الذين باينوا صفات نفوسهم حتى غمرها الحق بنوره من فضله ، ونقوا أخلاقهم حتى ذهبت عن الباطل إلى الحق ، وخالفوا نفوسهم حتى انطبعت على الخير . الذين يحببون الله عز وجل إلى خلقه ، ويذكرونهم نعمه ، ويحببون خلقه إليه بحثهم على طاعته والاعتراف بنعمته . والاعتذار من تقصيرهم فى خدمته .

الذين أيديهم مقبوضة عن أموال الناس ، وجوارحهم مكفوفة عن أذاهم وأعراضهم ، والناس منهم فى راحة ، وهم من شرور أنفسهم فى تعب ورياضة ، الذين لا يقابلون عمل السوء إلا عفوا وصفحاً ، ولا قول السوء إلا إعراضا وكرما » .

ومن مثل النصيحة قول ابن عطاء الله السكندرى أيضا (١) :

يا عبد الله دينك هو رأس مالك فان ضيعته ضيعت رأس مالك فاشغل لسانك بذكره وقلبك بمحبته وجوارحك بخدمته واحرث وجودك بالمحارث حتى يجيء البذر فينبت ؛ ومن فعل بقلبه كل ما يفعل الفلاح بأرضه أنار قلبه . مثالك مثال رجلين اشتريا أرضا قياسا واحداً فأخذها الواحد فنقاها من الشوك والحشيش وأجرى بها الماء وبذرها فنبتت وجنى منها وانتفع بها فهذا كمن نشأ فى الطاعة قد أشرقت أنوار قلبه ، وأما الآخر فإنه أهملها حتى نبت فيها الشوك والحشيش وبقيت مأوى الأفاعى والحيات فهذا قد أظلم قلبه بالمعاصى . .

وكتب الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى إلى السلطان الغالب بأمر الله ينصحه ويوجهه ، وكان السلطان قد بعث إليه برسالة سنة تسع وستمائة (٢)، وجاء فى رسالة ابن عربى : « . . . . بسم الله الرحمن الرحيم ، وصل الاهتمام السلطانى الغالب بأمر الله ، أدام الله عدل سلطانه، إلى والده الداعى له ، محمد ابن العربى ، فتعين عليه الجواب بالوصية الدينية ، والنصيحة السياسية الإلهية ، على قدر ما يعطيه الوقت ، ويحتمله الكتاب، إلى أن يقدر الاجتماع ، ويرتفع الحجاب » .

إلى أن يقول : « فاحذر أن أراك غداً بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا يكون شكرك لما أنعم الله به عليك من استواء ملكك بكفران النعم، وإظهار المعاصى ، وتسليط النواب السوء بقوة سلطانك على الرعية الضعيفة،

---

(١) ص ٣٨ تاج العروس للسكندرى .

(٢) الجزء الثانى من الفتوحات المكية .

فإن الله أقوى منك ، فيحتكمون فيهم بالجهالة والأغراض وأنت المسئول عن ذلك ، فياهذا قد أحسن الله إليك ، فأنصف المظلوم من الظالم، ولا يغرنك أن الله وسع عليك سلطانك ، وسوى البلاد لك ومهدها مع إقامتك مع المخالفة والجور وتعدى الحدود ، فإن ذلك الاتساع مع بقائك على مثل هذه الصفات ، بامهال من الحق لا اهمال ، ومابينك وبين أن تقف بأعمالك إلا بلوغ الأجل المسمى ، وتصل إلى الدار التى سافر إليها آباؤك وأجدادك .

ياهذا ومن أشد مايمر على الإسلام والمسلمين وقليل ماهم رفع النواميس والتظاهر بالكفر ، وإعلاء كلمة الشرك ، فتدبر كتابى ترشد إن شاء الله مالزمت العمل به » .

وأدب الوعظ فى جملته هو من هذا اللون الذى نتحدث عنه وهو أدب النصيحة والوصية ، والوعظ وجد منذ وجد الإسلام للحاجة إليه ، ولا يعنينا الوعظ هنا ، إلا إن صدر من صوفى كبير ، فنحمله حينئذ محمل النصيحة والوصية ؛ ومنه ما يقول عمر بن الخطاب : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، فيشرح ذلك الإمام الغزالى فيقول : إنما حساب المرء لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت ، و يتدارك مافرط من تقصيره حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة : فهذا يدخل الجنة بغير حساب .

وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه : فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته ، وهذا يتعلق بلبلبه ، وهذا يقول ظلمتنى ، وهذا يقول شتمتنى، وهذا يقول استهزأت بى ، وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى ، وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى ، وهذا يقول عاملتنى فغششتنى وأخفيت عنى عيب سلعتك ، وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك ، وهذا يقول رأيتنى محتاجاً وكنت غنياً فما أطعمتنى ، وهذا يقول وجدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظالم عنى فداهنت الظالم وماراعيتنى ، فبينما أنت

كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم ، وأحكموا فى تلابيبك أيديهم ، وأنت مبهوت متحير من كثرتهم ، حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم ، أو جالسته فى مجلس ، إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين احتقار ، وقد ضعفت عن مقاومتهم ، مددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم، إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لاظلم اليوم ، فعندئذ ينخلع قلبك من الهيبة ، وتوقن نفسك بالبوار ، وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان نبيه حيث قال . « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ، فما أشد حزنك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم ! وما أشد حسراتك فى ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل ، وشوفهت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لاتقدر على أن ترد حقاً أو تظهر عذرا . فعند ذلك تؤخذ حسناتك التى تعبت فيها عمرك ، وتنقل إلى خصمائك عوضاً عن حقوقهم »[1] .

---

(١) الإحياء جـ ٤ صـ ٥٤٦

الفصل الثالث

ادب المناجاة (١)

وهو الأدب الذي أنشأه الصوفية في مناجاة الله عز وجل والحديث إليه ، والاستغراق في خطابه ، وهو أدب بليغ ، ولون من ألوان النثر جد طريف ، وقد أتى الصوفية فيه بشكل معنى جديد بديع ، ومن صوره هذه المناجاة لذي النون المصري (٢٤٥ هـ) ، وقد جاء فيها :

« إلهي ما أصغي إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر ولا خرير ماء ولا ترنم طائر ولا تنعم ظل ولا دوى ريح ولا نعقة رعد إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك ، دالة على أن ليس كمثلك شيء ، وأنك غالب لا تغلب وعالم لا تجهل وحليم لا تسفه وعدل لا تجور وصادق لا تكذب .

إلهي فإني أعترف بما دل عليه صنعك وأشهد لك بما دل عليه صنعك ، وأشهد لك بما دل عليه فعلك ؛ فهب لي طلب رضاك برضاي .

إلهي من لم ينسه جميع الهموم رضاه عنك ولم يلهه عن جميع الملاهي تعداد آلائك ولم يقطعه عن الأنس بغيرك مكانه منك ، كانت حياته ميتة وميتته حسرة وسروره غصة وأنسه وحشة .

إلهي عرفني عيوب نفسي وافضحها عندي لأتضرع إليك وأبتهل بين

---

(١) يقال : نجوته نجوا وناجيته مناجاة إذا ساررته ، أي حدثت صديقا لك في السر ، وأدب المناجاة هو الحديث إلى الله عز وجل والابتهال إليه ، ولما كان - غالبا - إنما يكون في الليل وفي أثناء تهجد الإنسان ، وعند عدم وجود أحد معه سمي مناجاة .

يديك خاضعا ذليلا فى أن تغسلنى منها واجعلنى من عبادك الذين شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم ، تجول فى ملكوتك وتتفكر فى عجائب صنعك لترجع بفوائد معرفتك وعوائد إحسانك ، قد ألبستهم خلع محبتك وخلعت عنهم لباس التزين لغيرك .

إلهى لا تترك بينى وبين أقصى مرادك حجابا إلا هتكته ولا حاجزا إلا رفعته ولا وعرا إلا سهلته ولا بابا إلا فتحته ، حتى تقيم قلبى بين ضياء معرفتك وتذيقنى طعم محبتك وتبرد بالرضا منك فؤادى . وجمع أحوالى حتى لا أختار غير ما تختاره ، وتجعل لى مقاما بين مقامات أهل ولايتك ومضطربا فسيحا فى ميدان طاعتك .

إلهى كيف أسترزق من لا يرزقنى إلا من فضلك أم كيف أسخطك فى رضى من لا يقدر على ضرى إلا بتمكينك ؟ فيامن أسأله إيناسا به وإيحاشا من خلقه ، ويا من إليه التجائى فى شدتى ورجائى ، ارحم غربتى وهب لى من المعرفة ما أزداد به يقينا ، ولا تكلنى إلى نفسى الأمارة بالسوء طرفة عين » .

ومن ألحان معروف الكرخى فى تمجيد رب العزة :

« سيدى : بك تقرب المتقربون فى الخلوات ، ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات . أنت الذى سجدلك سواد الليل ، وضوء النهار ، والفلك الدوار ، والبحر الزخار ، والقمر النوار ، والنجم الزهار ، وكل شىء عندك بمقدار ، لأنك العلى القهار » .

وهذه مناجاة لابن عطاء الله السكندرى (٦٥٨ — ٧٠٩) وقد جاء منها :

« إلهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيراً فى فقرى .

إلهى أنا الجاهل فى علمى فكيف لا أكون جهولا فى جهلى .

إلهى منى مايليق بلؤمى ومنك ما يليق بكرمك .

إلهى وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى ، أفتمنعنى منها بعد وجود ضعفى ؟ .

إلهى إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة على وإن ظهرت المساوىء منى فبعدلك ولك الحجة على ، كيف تكلنى إلى نفسى وقد توكلت لى وكيف أضام وأنت الناصر لى ، أم كيف أخيب وأنت الحفى بى ، ها أنا أتوسل بفقرى إليك ، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك ، أم كيف أشكو إليك حالى وهو لايخفى عليك ، أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك برز إليك . أم كيف تخيب آمالى ، وهى قد وفدت إليك ، أم كيف لاتحسن أحوالى وبك قامت وإليك .

إلهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى ، وما أرحمك بى مع قبيح فعلى . إلهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك .

إلهى ما أرأفك بى فما الذى يحجبنى عنك ، إلهى قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرف إلى فى كل شىء حتى لا أجهلك فى شىء . إلهى كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك وكلما آيستنى أوصافى أطمعتنى مننك .

إلهى حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة ، لم يتركا لذى مقال مقالا ، ولا لذى حال حالا .

إلهى ترددى فى الآثار يوجب بعد المزار فاجمعنى عليك بخدمة توصلنى إليك . إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ، أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك ، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك .

إلهى عميت عين لاتراك عليها رقيبا ، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا .

إلهى أخرجنى من ذل نفسى ، وطهرنى من شكى وشركى ، قبل حلول رمسى ، بك أستنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا تكلنى ، وأياك أسأل فلا تخيبنى ، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى .

إلهى إن القضاء والقدر غلبنى ، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرنى ، فكن أنت النصير لى تنصرنى ، وتنصر بى ، واغننى بفضلك حتى استغنى بك عن طلبى ، أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبائك ، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم ، ماذا وجد من فقدك ، وما الذى فقد من وجدك . لقد خاب من رضى دونك بدلا ولقد خسر من بغى عنك متحولا .

إلهى كيف يرجى سواك وأنت ماقطعت الاحسان ، وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان ، يامن أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين ، ويامن ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين ، أنت الذكر من قبل الذاكرين وأنت البادىء بالإحسان من قبل توجه العابدين ، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين .

إلهى اطلبنى برحمتك حتى أصل إليك واجذبنى بمنتك حتى أقبل عليك .
إلهى إن رجائى لاينقطع عنك وإن عصيتك . كما أن خوفى لايزايلنى وإن أطعتك ، إلهى قد دفعتنى العوالم إليك وأوقفنى علمى بكرمك عليك .

إلهى كيف أخيب وأنت أملى ، أم كيف أهان وعليك متكلى » .

وقد ابتكر ابن عطاء الله أيضا مناجاة من الله لعبده على لسان هواتف الحقائق ، ومنها ما قاله ابن عطاء فى هذه المناجاة (١) الإلهية :

---

(١) ٥٢ تاج العروس لابن عطاء الله .

« أيها العبد : ألق سمعك وأنت شهيد بأنك منى المزيد، وأصغ بسمعك فأنا لست عنك ببعيد كنت بتدبيرى لك قبل أن تكون لنفسك ، فكن لنفسك بأن لا تكون لها ، وتوليت رعايتها قبل ظهورك ، وأنا الآن على الرعاية لها . أنا المتفرد بالخلق والتصوير ، وأنا المنفرد بالحكم والتدبير ، لم تشاركنى فى خلق وتصويرى فلا تشاركنى فى حكمتى وحكمى وتدبيرى ، أنا المدبر لملكى وليس لى فيه ظهير ، وأنا المنفرد بحكمى فلا أحتاج إلى وزير . أيها العبد من كان لك بتدبيره قبل الايجاد فلا تشاركه فى المراد ، ومن عودك حسن النظر منه إليك فلا تقابله بالعناد ، عودتك حسن النظر منى لك فعودنى اسقاط التدبير منك معى .. أشكا بعد وجود التجربة وحيرة بعد وجود البيان وضلالا بعد وضوح الهدى، وقد سلمت لى قيامى بمملتى وأنت من مملكتى فلا تنازع ربوبيتى ولا تضاد بتدبيرك مع وجود ألوهيتى . متى أحوجتك إليك حتى تحتال عليك، متى وكلت شيأ من مملكتى لغيرى حتى أكل ذلك إليك ، متى خاب من كنت له مدبرا ومتى خذل من كنت له ناصرا ؟

أيها العبد : لتشغلك خدمتى عن طلب قسمتى ، وليمنعك حسن الظن بى عن اتهام ربوبيتى .. لا ينبغى أن يتهم محسن ولا أن ينازع مقتدر ولا أن يضاد قهار ولا أن يعترض على حكيم ولا أن يقال هم مع لطيف خبير . فاز بالنجح من خرج من الإرادة معى ولقد دل على تيسير الأمور من احتال على ولقد استوجب النصر منى عبد إذا تحرك يتحرك بى ، ولقد استمسك بأقوى الأسباب من استمسك بسببى .

أيها العبد : نريد منك أن تريدنا ولا تريد معنا ، ونريد منك أن تختارنا ولا تختار معنا ، ونرضى لك أن ترضانا ولا ترضى سوانا ؛ وكما سلمت لى تدبيرى فى أرضى وسمائى وانفرادى فيهما بحكمى وقضائى سلم وجودك لى فانك لى ولا تدبر معى فانك معى واتخذنى وكيلا وثق بى كفيلا أعطك عطاء جزيلا وأهبك فخرا جليلا .

ويحك ، إنا أجللنا قدرك أن نشغلك بأمر نفسك ، فلا تصغر قدرك ، يامن رفعناه ، لاتذكر بحوائك على غيرى يامن أعززناه ، ويحك أنت عندنا أجل من أن نشغلك بغيرنا ، لحضرتى خلقتك ، وإليها خطبتك ، وبجواذب عنايتى إليها جذبتك ، فإن اشتغلت بنفسك حجبتك وإن اتبعت هواها طردتك وإن خرجت عنها قربتك وإن توددت إلى بأعراضك عما سواى أحببتك .

أيها العبد : ما آمن بى من نازعنى ولا وحدنى من دبر معى ولا رضى بى من شكى ما أنزلت به إلى غيرى،ولا اختارنى من اختار معى،ولا امتثل أمرى من لم يستسلم لقهرى . لو طلبت التدبير لنفسك لجهلت فكيف إذا دبرت لها ، ولو اخترت معى ما أنصفت فكيف إذا اخترت على .

أيها العبد : يكفيك من الجهل أن تسكن لما فى يدك ولا تسكن لما فى يدى ، أنا أختار لك أن تختارنى أفتختار على ، يامهموما بنفسه لو ألقيتها إلينا لاسترحت ، ويحك اعباء التدبير لايحملها إلا الربوبية وليس يقوى عليها ضعيف البشرية ، ويحك أنت محمول فلا تك حاملا أردنا راحتك فلا تكن لنفسك متعبا .

أيها العبد : أمرتك بخدمتى وضمنت لك نعمتى فأهملت ما أمرت وشككت فيما ضمنت ولم أكتف بقسمتى لك ، بالضمان أقسمت ولم أكتف بالقسم حتى مثلت فخاطبت عبادا يفهمون فقلت « وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » ، وقد رزقت من غفل عنى وعصانى فكيف لا أرزق من أطاعنى ودعانى .

ويحك الغارس للشجرة ساقيها ، والممد للخليقة هو باريها . منى كان الايجاد وعلى دوام الامداد منى كان الخلق،وعلى دوام الرزق،أأدخلك دارى وأمنعك وجود عونى؟أأخرجك إلىوجودى وأمنعك جودى؟لك هيأت منتى

وفيك ظهرت رحمتى وما قنعت بالدنيا حتى ادخرت لك جنتى وما اكتفيت لك بذلك حتى أتحفتك برؤيتى، فإذا كانت هذه أفعالى فكيف تشك فى إفضالى فاخترنى ولا تختر على ووجه قلبك بالصدق إلى فإن فعلت أريتك غرائب لطفى وبدائع وجودى وأمتع سرك بشهودى » .

وهى صور كلها تفيض بلاغة وخشوعا وصوفية وطهرا وروحانية ويقينا .

وفن المناجاة قديم فى الآداب العالمية ومن مثله فى الأدب المصرى القديم أناشيد أخناتون ، التى ناجى فيها قرص الشمس الذى يرمز فى عقيدته الإله الواحد ، وقد رتلت له الأناشيد التى كانت من عيون الأدب المصرى القديم ، وفى أحد هذه الأناشيد يقول اخناتون :

شروقك جميل فى أفق السماء
يا أتون ياحى يامبدىء الحياة
إذا طلعت فى الأفق الشرقى
ملأت الأرض كلها بجمالك
أنت جميل عظيم تتلألأ عاليا فوق كل البلاد
إنك رفيع وأشعتك فى الأرض [1]

وما أقرب هذا المعنى إلى قول البحترى :

دان على أيدى العفاة وشاسع ... عن كل ند فى الندى وضريب
كالبدر أفرط فى العلو وضوؤه ... للعصبة السارين جد قريب

ولكن شتان بين مثل هذه المناجاة القديمة وبين أدب المناجاة عند الصوفيين .

---

(١) راجع ص ١١٣ فى الأدب المصرى القديم - أحمد عبد الحميد يوسف .

وهذه هى مناجاة للسهروردى :

إلهى وإله جميع الموجودات ، من المعقولات والمحسوسات .
ياواهب النفوس والعقول ، ومخترع ما هيات الأركان والأصول .
ياواجب الوجود ، ويافائض الجود .
ويا جاعل القلوب والأراوح ، ويافاعل الصور والأشباح .
يانور الأنوار ، ومدبر كل الدوار .
أنت الأول الذى لا أول قبلك .
وأنت الآخر الذى لا آخر بعدك .
الملائكة عاجزون عن إدراك جلالك .
والناس قاصرون عن معرفة كمال ذاتك .
أللهم خلصنا عن العلائق الدنية الجسمانية .
ونجنا من العوائق الردية الظلمانية .
أرسل على أرواحنا شوارق أنوارك .
وأفض على نفوسنا بوارق آثارك .
العقل قطرة من قطرات بحار ملكوتك .
والنفس شعلة من شعلات نار جبروتك (١) .

ذاتك فياضة ، تفيض منها جواهر روحانية ، لامتمكنة ولا متحيزة ، ولا متصلة ولا منفصلة ، مبرأة عن الأحياز والأين (٢) ، معراة عن الوصل والبين (٣) .

---

(١) الجبروت : القدرة والسلطة .
(٢) الأحياز : جمع حيز : المكان وقد يكون بمعنى الحوز : الأخذ . الأين : الحين ، والتعب والإعياء .
(٣) البين : الفراق .

وسبحان الذى لاتدركه الأبصار ، ولا تمثله الأفكار

لك الحمد والثناء ، ومنك المنع والعطاء ، ولك الجود والبقاء ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون (١) » .

ومناجاة أخرى لجلال الدين الرومى :

« يامن هو عزاء النفس فى ساعة الغم والحزن ، يامن فيه غناء الروح عند مرارة الفقر والعوز ، يامن نحوه أولى وجهى فى حياتى ووجودى ، يامن هو أنسى وفرحتى وسرورى .

لو أنى وهبت ملكا لايبلى ، أو أن كنزاً خفيا فتح لى يحوى كل مافى الوجود ، لسجدت لك روحى ، ووضعت وجهى فى الثرى ، وصحت قائلا : ليس لى مراد غير حبك ، كل شىء يزول ويفنى ويذهب إلى العدم ، ويبقى نور الحب خالدا سرمديا » .

---

(١) عن مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٤٨ فلسفة ، ومطبوع رقم ٢٠٥ ، ٢٠٦ فلسفة .

الفصل الرابع

أدب الدعاء

وهو أدب جم غزير رائع عند الصوفية ، فى مختلف العصور ، وينقسم إلى أقسام كثيرة :

١ — الأدعية : وهى جمع دعاء بمعنى النداء ، والأدعية هى الدعوات التى يدعو بها الصوفيون المولى جل جلاله ، لا يطلبون فيها غالبا شيئا من حظ الدنيا بل ولا من حظ الآخرة ، إنما يطلبون الرضاء والقبول والوصل والقرب ، وقد وردت أدعية كثيرة مأثورة عن الرسول والصحابة وعن الصوفيين ، ومن أدعية الرسول : « اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى بصرى نورا ، وفى سمعى نورا ، وفى لسانى نورا ، اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى »[1] ؛ ومن أدعيته صلوات الله عليه كذلك : « اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، اغفر فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »[2] .

ومن الأدعية الاستعاذات ، وهى أدعية تبتدىء بكلمة « أعوذ » ومن مثلها هـذه الاستعاذة النبوية الشريفة :

اللهم إنى أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر ؛ اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ودعاء لا يسمع ،

---

(١) ١ : ٢٦٥ الاحياء .

(٢) ٤ : ٦٧ البخارى .

ونفس لا تشبع ، وأعوذ بك من الجوع ، فإنه بئس الضجيع ، ومن الخيانة ، فإنها بئست البطانة ، ومن الكسل والبخل والجبن ، ومن الهرم ، ومن أن أرد إلى أرذل العمر ، ومن فتنة الدجال ، وعذاب القبر ، وفتنة المحيا والممات (١) .

وفي كتب الفقه والتصوف أدعية مختلفة باختلاف الأعمال التي يقوم بها الإنسان (٢) .

ومن الأدعية كذلك الاستغفار وهو يبدأ بكلمة « أستغفر الله » ، والتسبيح ويبـــدأ بسبحان الله ، والاستغاثة وهي طلب الغوث من الله عز وجل .

ومن الأدعية المشهورة أدعية زين العابدين بن الحسين ، (٣٨ — ٩٤ هـ (٣)) ، ومنها :

« . . اللهم لك قلبي ولساني ، وبك نجاتي وأماني ، وأنت العالم بسري وإعلاني ، فأمت قلبي عن البغضاء ، وأصمت لساني عن الفحشاء ، وأخلص سريرتي وعلانيتي من علائق الأهواء واكفني بأمانك عواقب الضراء ، واجعل سري معقودا على مراقبتك ، وإعلاني موافقاً لطاعتك ، وهب لي جسما روحانياً . وقلباً سماويا ، وهمة متصلة بك ، ويقينا صادقاً في حبك » .

ومن دعاء ذي النون المصري ، وهو من ضراعات الأقطاب ، وابتهالات العارفين : « اللهم إن الحول حولك ، والطول طولك ، ولك في خلقك مدد وقوة وحول ، وأنت الفعال لما تشاء . لا العجز والجهل يطارحانك ،

---

(١) ١ : ٣٢٩ الاحياء .
(٢) راجع بعضا منها في نهاية الأرب ٥ : ٣٠٢ - ٣٢٥
(٣) ١ : ٥٧٨ وفيات الأعيان .

ولا النقصان والزيادة يحيلانك، لايحد قدرتك أحد ، ولايشغلك شأن عن شأن .

وله أيضا ، وهو من مواجيد القلوب : « اللهم اجعل العيون منا فوارات بالعبرات والصدور منا محشوة بالعبر والحرقات ، واجعل قلوبنا غواصة فى موج قرع أبواب السماوات ، تائهة من خوفك فى البوادى والفلوات ، افتح لأبصارنا بابا إلى معرفتك ، ولمعرفتنا أفهاما إلى النظر فى نور حكمتك . ياحبيب قلوب الوالهين ، ومنتهى رغبة الراغبين ، اللهم تقبل مامننت به علينا من الإسلام والإيمان ، ولا تمنعنا عفوك عند السؤال ، فإنا إليك آيبون ، ومن الإصرار على معصيتك تائبون » .

ومن شوامخ الكلم لأبى حيان التوحيدى فى الدعاء (١) .

« اللهم اجعل غدونا إليك مقرونا بالتوكل عليك ، ورواحنا عنك موصولا بالنجاح إليك ولا تخلنا من يد تستوعب الشكر . ومن شكر يمترى خلق المزيد ، ومن مزيد يسبق اقتراح المقترض ، وصنــع يفوق ذرع الطالبين .

اللهم احجز بيننا وبين كل مادل على غيرك ، انقلنا من مواطن العجز ، مرتقيا بنا إلى شرفات العز ، فقد استحوذ الشيطان ، وخبثت النفس وساءت العادة ، وكثر الصادفون عنك ، وقل الداعون إليك ، وقل المراعون لأمرك وفقد الواقفون عند حدودك . وخلت ديار الحق من سكانها ، وبيع دينك بيع الخلق .

اللهم فأعد نضارة دينك ، وامدد علينا ظل توفيقك ، اللهم بك نعتز كما أنا بغيرك نذل ، وإياك نرجو ، كما أنا من غيرك نيأس .

(١) التوحيدى فى ذلك ينهج نهج الجاحظ وكان كثير الدعاء فى مقدمات كتبه .

اللهم إنك تملك العالم كله وما بعده وماقبله ، ولك فيه تصاريف القدرة وخفيات الحكمة ونوافذ الإرادة ، ولك فيه مالاندريه مما تخفيه ولاتبديه ، جللت عن الإجلال ، وعظمت عن التعظيم ، فكن عند ظننا بك ، وحقق رجاءنا فيك ، فما خالفناك جراءة عليك ، ولا عصيناك تقحما فى سخطك ، ولا اتبعناهوانا استهزاء بأمرك ونهيك ، ولكن غلبت علينا جواذب الطينة التى عجنتنا بها ، وبذور الفطرة التى أنبتتنا منها ، فلسنا ندعى حجة ، ولكن نسألك رأفة ، إنك أهل ذلك وأنت على كل شىء قدير » . وللتوحيدى كتاب عنوانه « الإشارات الإلهية » .

ومن دعاوات قطب التصوف وشيخه الإمام الجنيد :

« اللهم إنى أسألك ياخير السامعين ، وبجودك ومجدك يا أكرم الأكرمين وبكرمك وفضلك يا أسمح السامحين . أسألك سؤال خاضع خاشع ، متذلل متواضع ضارع . اشتدت إليك فاقته ، وعظمت فيما عندك رغبته ، وعلم أن لايكون شىء إلا بمشيئتك ، ولايشفع شافع إليك إلا من بعد إذنك ، إلهى وسيدى وسندى ، أنا بك عائذ لائذ مستغيث مستنجد » .

ويقول الشاعر الفارسى الكبير حافظ الشيرازى أحد أقطاب التصوف فيما وراء النهر :

« فى السوق وفى الصومعة ما رأيت غير الله
فى السهل وفى الجبــل ما رأيت غير الله
كثيراً ما أبصرته بجوارى فى المحنة »

ولأبى حيان التوحيدى (٤١٤ هـ) أيضا هذا الدعاء البليغ الرائع ، وهو أفق بلاغى يعز على من رامه ويطول ، قال أبو حيان :

اللهم إنى أبرأ من الثقة إلا بك ، ومن الأمل إلا فيك ، ومن التسليم إلا لك ، ومن التوكل إلا عليك ، ومن الطلب إلا منك ومن الرضا إلا عنك .

أسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتى ، والشكر على نعمك شعارى ودثارى ، والنظر إلى ملكوتك دأبى وديدنى . والانقياد لك شأنى وشغلى ، والخوف منك أمنى وإيمانى ، واللياذ بذكرك بهجتى وسرورى . اللهم إنى أسألك خفايا لطفك ، وفواتح توفيقك . ومألوف برك . وعوائد إحسانك، وأسألك القناعة برزقك ، والرضا بحكمك ، والنزاهة عن محظورك ، والورع فى شبهاتك .

اللهم اجمع من أمرى شمله ، وانظم من شأنى شتيته ، واحرسنى عند الغنى من البطر ، وعند الفقر من الضجر ، وعند الكفاية من الغفلة ، وعند الحاجة من الحسرة ، وعند الطلب من الخيبة ، وعند البحث من الاعتراض عليك — أسألك أن تجعل صدرى خزانة توحيدك ، ولسانى مفتاح تمجيدك ، وجوارحى خدم طاعتك . فإنه لاعز إلا فى الذل لك ، ولا غنى إلا فى الفقر إليك . ولا أمن إلا فى الخوف منك . اللهم إليك نشكو قسوة قلوبنا ، وغل صدرنا ، وفتنة أنفسنا ، وطموح أبصارنا ، ورفث ألسنتنا ، وسخف أحلامنا ، وسوء أعمالنا .

اللهم أطب عيشنا بنعمتك ، وارح أرواحنا من كد الأمل فى خلقك، وخذ بأزمتنا إلى بابك . اللهم أنت الظاهر الذى لا يجحدك جاحد إلا زايلته الطمأنينة ، وأوحشه القنوط ، وتردد بين رجاء قد ناء عنه التوفيق ، وأمل قد حفت به الخيبة .

وهذا هو دعاء للسهروردى :

« إلهنا وإله مبادينا .

ياقيوم ، ياحى ، ياكل ، يامبدأ الكل .

يانور كل نور ، ياقابض كل خير وجود .

خلصنا إلى مشاهد عالم ربوبيتك .

نجنا عن قيد الهيولى .

أذقنا برد عفوك وحلاوة مناجاتك . .

ياربنا ورب كل عقل ونفس .

أرسل على قلوبنا رياح رحمتك ، وأخرجنا عن هذه القرية الظالم أهلها، وأنزل على أرواحنا لوامع بركاتك ، وأفض على نفوسنا أنوار خيراتك .

يسر العروج إلى سماء القدس ، والاتصال بالروحانيين ، ومجاورة المعتكفين فى حضرة الجبروت المطمئنين فى غرفات المدينة الروحانية التى هى وراء الوراء . .

سبحانك ماعبد ناك حق عبادتك ، يامن لايشغله سمع عن سمع .

سبحانك إنك أنت المتجلى بنورك لعبادك فى أطباق السموات » .

ومن الأدعية كذلك الأحزاب والأوراد، والفرق بينهما أن الورد يقرأ فى أوقات منظمة ، فيقال : ورد الصباح وورد المساء وورد النهار وورد الليل مثلا . أما الحزب فليس لقراءته وقت معين مخصوص .

وحزب البر للشاذلى مشهور ومنه: « اللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معروف، وأنت بالعلم موصوف ، قد وسعت كل شيء ، فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك ، اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك ، فهنيئا لمن عرفك فرضى بقضائك ، والويل لمن لايعرفك ، بل الويل ثم الويل لمن أقر بوحدانيتك ولم يرض بأحكامك . ودلائل الخيرات وما فيها من أحزاب صوفية معروفة .

ومن مشهور المؤلفات الصوفية فى الأحزاب والأوراد :

١ — كتاب « دلائل الخيرات ، وشوارق الانوار فى ذكر الصلاة على النبي المختار » تأليف الشيخ أبى عبد الله محمد بن سليمان بن أبى بكر الجزولى السملالى المتوفى عام ٨٧٠ ﻫ بسوس بالمغرب ، وبعض الباحثين يجعل وفاته

خطأ عام ٨٥٤ هـ ، وقد شرح الدلائل كثير من العلماء والمؤلفين .

٢ — قصيدة أسماء الله الحسنى لصبغة الله الشهرزورى الخيالى ، وقد شرحها الشيخ عبد القادر الجيلانى (٤٩١ - ٥٦١ هـ) .

وتفيض الأوراد الصوفية بالتضرعات الحارة ، والابتهالات الصادقة .

ومن أمثلة ذلك أيضا قول ابن العربى فى حزب الوقاية المسمى بالدور الأكبر :

« اللهم : ياحى ياقيوم . بك تحصنت فاحمنى بحماية كفاية وقاية حقيقة برهان حرز أمان بسم الله .

وأدخلنى يا أول يا آخر فى مكنون غيب سر دائرة كنز ماشاء الله لاقوة إلا بالله .

وأسبل على يا حليم ياستار كنف ستر حجاب صيانة نجاة « واعتصموا بحبل الله » .

وابن يامحيط ياقادر على سور أمان إحاطة مجد سرادق عز عظمة « ذلك خير ذلك من آيات الله »

وأعذنى يارقيب يامجيب ، واحرسنى فى نفسى ودينى وأهلى ومالى وأولادى بكلاءة إغاثة إعاذة « وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » . . الخ (١) . .

ويلاحظ مافى هذا من كثرة تتابع الإضافات التى نجدها أحيانا فى كلام الصوفيين المتأخرين .

وهذا ورد صوفى للمؤلف مأخوذ من المأثور فى الدعاء :

« اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم ، اللهم أنت السلام ومنك السلام

(١) ١٠٦ - ١١١ مجموع الأوراد .

وإليك يعود السلام ، حينا ربنا بالسلام ، وأدخلنا دار السلام ، تباركت ياذا الجلال والإكرام .

سبحان ربنا العلي الوهاب، لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده لا شريك له أهل النعمة والفضل والثناء الحسن، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

اللهم إنا نسألك رحمة من عندك تهدى بها قلوبنا وتجمع بها شملنا وتلم شعثنا وترد بها الفتن عنا وتصلح بها ديننا وتحفظ بها غائبنا وترفع بها شاهدنا وتزكى بها عملنا وتبيض وجوهنا وتلهمنا بها الرشد وتعصمنا بها من كل سوء . اللهم أعطنا إيمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر ، ورحمة ننال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة .

اللهم إنا نسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء ومرافقة الأنبياء . . . أنزل بك حاجتى وإن ضعف رأيى وقلت حيلتى وقصر عملى وافتقرت إلى رحمتك ، فأسألك ياكافى الأمور وشافى الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور . اللهم ماقصر عنه رأيى وضعف عنه عملى ولم تبلغنى إياه نيتى، من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فإنى أرغب إليك فيه وأسألكه يارب العالمين .

اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين ، حربا لأعدائك ، وسلما لأوليائك ، نحب بحبك من أطاعك من خلقك ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة وهذا الجهد وعليك التكلان ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد ، أسألك الامن يوم الوعيد والجنة يوم

الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وأنت تفعل ماتريد . سبحان الذى لبس العز وقال به ، سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به . سبحان الذى لاينبغى التسبيح إلا له ، سبحان ذى الفضل والنعم ، سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه .

اللهم اجعل لنا نورا فى قلوبنا ونورا فى قبورنا ونورا فى سمعنا ونورا فى بصرنا ونورا فى لحمنا ونورا فى دمنا ونورا من بين أيدينا ونورا من خلفنا ونورا عن يميننا ونورا على شمالنا ونورا من فوقنا ونورا من تحتنا . . وأحينا على الإسلام وأمتنا على الإيمان واختم لنا بخاتمة اليقين وانصرنا على القوم الكافرين ونجنا اللهم من الهم والكرب العظيم ، وارزقنا رزقا حلالا طيبا رغدا .

اللهم زدنا نورا واعطنا نورا واجعل لنا نورا واحشرنا مع الذين أنعم الله عليهم من الأنبياء والشهداء والصالحين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته إلى يوم الدين ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، .

الفصل الخامس

الأدب النفسى

الحديث عن خطرات النفس كثير فى كتب الأدب الصوفى وفى مؤلفات الصوفية ، وهو أصل لكل الدراسات النفسية التى ظهرت فى العصر الحديث ، يقول الإمام الغزالى فى الزهد :

« إن الكاره للدنيا مشغول بالدنيا ، كما أن الراغب فيها مشغول بها ، والشغل بما سوى الله حجاب عن الله ، وهو ليس فى مكان حتى تكون السموات والأرض حجابا بينك وبينه ، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره ؛ وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره ، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله ، والمشغول ببغض نفسه مشغول أيضا عن الله ، بل كل ماسوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر فى مجلس يجمع العاشق والمعشوق ؛ فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو فى حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ، ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه ؛ فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك فى العشق ونقص فيه ؛ فكذا النظر إلى غير المعشوق لبغضه شرك فيه ونقص ؛ ولكن أحدهما أخف من الآخر ، بل الكمال فى أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضا أو حبا ، فإنه كما لا يجتمع فى القلب حبان فى حالة واحدة ؛ فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها ، إلا أن المشغول بحبها غافل وهو فى غفلته سالك فى طريق البعد ، والمشغول ببغضها غافل وهو فى غفلته سالك فى طريق القرب (١) .

---

(١) ٤ : ١٠١ الإحياء

ويجعل الغزالى الحب الإلهى هو غاية الحياة كما هو سر سعادتها ، انظر إليه يقول فى توضيح السعادة :

« سعادة كل شىء لذته وراحته ، ولذة كل شىء تكون بمقتضى طبعه ، وطبع كل شىء ماخلق له . فلذة العين فى الصور الحسنة ، ولذة الأذن فى الأصوات الطيبة ، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة ، ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى ، لأنه مخلوق لها ، وكل مالا يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به ، مثل الشطرنج إذا عرفها فرح بها ، ولو ينهى عنها لم يتركها ولا يبغى عنها بديلا ، وكذلك إذا وقع فى معرفة الله سبحانه وتعالى فرح بها ولم يصبر عن المشاهدة ، لأن لذة القلب المعرفة ، وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر ، ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح ، ولو عرف المليك لكان أعظم فرحا ، وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى ، لأن شرف كل موجود به ومنه ، وكل عجائب العالم أثر من آثار صنعه ، فلا معرفة أعز من معرفته ، ولا لذة أعظم من لذة معرفته ، وليس منظر أحسن من منظر حضرته ، وكل شهوات الدنيا متعلقة بالنفس ، وهى تبطل بالموت ولذة معرفة الله متعلقة بالقلب فلا تبطل بالموت ، لأن القلب لا يهلك بالموت بل تكون لذته أكثر ، وضوؤه أكبر لأنه خرج من الظلمة إلى النور » .

فالغزالى يقرر فى ثقة يقينية ، ووضوح وصراحة ، بأن الحياة الفاضلة السعيدة هى معرفة الله ومحبة الله ، وعبادة الله هى الغاية العليا والهدف الأسمى .

وفى تصوير منزلة الإنسان وقدرته على الصعود إلى أعلى الطبقات يقول جلال الدين الرومى :

هنا عالم ، وهناك عالم ، وأنا على العتبة جالس . وفى طوق الإنسان أن

يكون إذا شاء أحط من البهائم وأن يكون أرفع من الملائكة .

تتكون خميرة الرجل العجيبة من الملك والحيوان فان جنح إلى الحيوان كان أحط منه .

وإن مال إلى طبيعة الملك برزفيها عليه .. هو أقل من البهائم ، لأن البهائم تنقصها المعرفة التى تمكنها من النهوض .

وهو أرفع من الملائكة لأن الملائكة ليسوا بعرضة للهوى فهم لا يزلون .

الفصل السادس

خصائص النثر الصوفى

تحدثنا عن ألوان النثر الصوفى وأفكاره ، وننتقل إلى الحديث عن خصائصه وسماته .

وأول سمة لهذا النثر الصوفى هى صدوره عن عاطفة قوية ، ومشاعر حية،وانفعال صادق وتجربة عميقة ، فلقد أحس القوم بنار الحب ، فاكتووا بلهيبه ، وأرقهم ذكرى الوصل ، وألهبت مشاعرهم كل ما أودع فى نفوسهم من إلهامه ، ووقفوا على نهج الورد يشعرون ولا يذوقون .

فكلام الصوفية كله شعور صادق وعاطفة متقدة ، وكله مزامير وألحان وموسيقى ، فالحياة لديهم نغم ووجد ، ومحب ومحبوب ، فهم أبداً فى مفاجأة إلهية ، وفى جلوة وأنس وحضرة زكية ، وفى فيوض وإشراقات وإلهامات قدسية ، فى حرارة الحب يعيشون ، وفى لهفة الشوق يتواثبون ، وفى جمال الهوى يتواجدون ، وفى ربهم يفنون فيخلدون .

هم يعيشون فى دائرة حب إلهى يضفى ظلاله على حياتهم وعلى تفكيرهم وحركاتهم فيلونها بألوان سمارية لا تطيقها العيون الأرضية ، ألوان تفهمها أرواح وتطمئن إليها قلوب ، وتستنكرها وتنفر منها عيون وعيون . حب يلمع ويشرق فى كل سطر وحرف سطروه تخلدوه ، فالله محبة والدين محبة ، والحياة محبة ، والسر محبة ، والاسم الأعظم محبة ، كل شىء فى الوجود جميل ؛ لأن طابعه وصانعه الحب . وكل شىء فى القلب والروح نقى نبيل ، لأن ملهمه الحب ؛ والكون بأسره باسم ضاحك ، مشرق بالوجد والشوق ،

مثير بنور الوجه الكريم الذى أشرقت بسبحات أنواره السموات والأرضون.
والصوفيون بهذا الحب يرتفعون فوق الحياة درجات ، والصوفية بهذا الحب يسمون بالعلاقة بين الخالق والمخلوق سمواً عظيما ؛ وهل بعد الحب بين العبد وربه سمو وغاية ؟ إن الحياة عندهم كلها جمال ، وألحان ونور ، وصلة دائمة بالله ، ومحبة خالدة باقية ،محبة تلف الأعصاب والأحاسيس والوجدان والشعور بشملتها اللينة الدافئة ، فإذا الحياة ارتفاع وارتفاع حتى ترفرف الروح حول عرش الرحمن .

وقد اصطلت رابعة العدوية (١٣٥ هـ) بنار هذا الحب وقالت فيما قالت:

كلهم يعبدون من خوف نار ويرون النجاة حظا جزيلا
ليس لى فى الجنان والنار حظ أنا لا أبتغى سـواك بديلا

والأدب الصوفى فيه لذلك الكثير من الإشراقات الروحية المستمدة من إشراقات الروح النبوية الشريفة وروح القرآن الكريم . . وانظر إلى هذا الحديث النبوى العالى الذى يشرق بطاقات كثيرة من عظمة الروح المحمدية وجلالها .

روى عن عفيف بن قيس الكندى قال : كنت فى الجاهلية عطارا ، فقدمت مكة ، فنزلت على العباس بن عبد المطلب ، فبينا أنا جالس عنده أنظر إلى الكعبة ، وقد تحلقت الشمس فى السماء ، أقبل شاب كأن فى وجهه القمر ، حتى رمى ببصره إلى السماء ، فنظر إلى الشمس ساعة ، ثم أقبل حتى دنا من الكعبة ، فصف قدميه يصلى ، فخرج على أثره فتى كأن وجهه صفيحة يمانية ، فقام عن يمينه ، فجاءت امرأة متلففة فى ثيابها فقامت خلفهما ، فأهوى الشاب راكعا ، فركعا معه ، ثم أهوى إلى الأرض ساجداً فسجدا معه ، فقلت للعباس : يا أبا الفضل أمر عظيم ، فقال : أمر والله عظيم ، أتدرى من هذا الشاب ؟ قلت : لا ، قال : هذا ابن أخى محمد بن عبد الله ،

أتدرى من هـذا الفتى ؟ قلت : لا ، قال : هذا ابن أخى ، هذا على بن أبى طالب ، أتدرى من المرأة ؟ قلت : لا ، قال هذه ابنة خويلد هذه خديجة زوج محمد هذا ، وإن محمدا هذا يذكر أن إلهه إله السماء والأرض أمره بهذا الدين ، فهو عليه كما ترى ، ويزعم أنه نبى ، وقد صدقه على قوله على ابن عمه هذا الفتى ، وزوجه خديجة هذه المرأة (١) .

ومن ذلك ماورد عن محمد بن كعب قال حدثت أن عتبة بن ربيعة قال ذات يوم وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده فى المسجد: يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل منا بعضها ويكف عنا ؟ قالوا بلى يا أبا الوليد، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا ابن أخى إنك منا حيث علمت من البسطة فى العشيرة والمكانة فى النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم ، فاستمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع، قال يا ابن أخى : إن كنت إنما جئت بهذا تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا مالا وإن كنت تطلب الشرف فينا فنحن نسودك علينا حتى لانقطع أمرا دونك وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا وإن كان هـذا الأمر الذى يأتيك رئيا قد غلب عليك بذلنا أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك أو نعـــذر ، فلما فرغ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم ، قال فاسمع منى ، قال فافعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا، فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه، فلما سمعها

---

(١) صـ ١٨ و ١٩ رسائل الجاحظ طبعة السندوبى ١٩٣٣ .

عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد فيها ثم قال سمعت ياأبا الوليد ، قال سمعت قال فأنت وذاك فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس قالوا ماوراءك ياأبا الوليد؟ قال والله قد سمعت قولا ماسمعت بمثله قط والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة يامعشر قريش أطيعونى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به ، قالوا سحرك ياأبا الوليد بلسانه ، قال هذا رأيى فيه فاصنعوا مابدا لكم ، وهذا حديث محمد بن كعب عند ابن اسحاق ، وزاد فى رواية غيره قال : فأجابنى بشىء والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة، قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، حتى بلغ : « فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فأمسكت فمه وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود .

أليس فى ذلك وفيما شابهه أدب رائع رفيع ، وطاقة روحية عالية ، كانت هى من أكبر الدعائم للأدب الصوفى ، وللطاقات الإلهية العالية فى نفوس الصوفيين .

وثانى سمة لهذا النثر هو إيمانه المطلق بالله وبالإنسان الذى استعز بعزة الله .

كان الفيلسوف الألمانى هيجل يقول :

« إن الإنسان كائن واع مفكر وهو يستطيع أن يفكر فى الأشياء

وفى نفسه ، كذلك بعكس الكائنات الأخرى ، وهو حين يفكر فى الأشياء ويحاول أن يرأب الصدع الذى بينه وبينها بأن يلقى ظلالا من نفسه عليها . ومن ثم فإن المادة فى العمل الفنى ، أو العنصر الحسى فيه ، يستأهل مكانه فقط بمقدار تماثله لعقل الإنسان لا بحكم مادته الخاصة » .

فالإنسان وحده دون الكائنات الكونية ، هو الشاعر بنفسه وبالله ، ومن ثم كان هو التفسير الكامل للكون ، أو هو المرتبة الجامعة لكل خصائص المرتبة التى تجلت فيها أسمى الحقائق ، مرتبة الروح التى هى من روح الله . الروح الذى سجد له الملأ الأعلى ، وأحاط بما لم تحط به الملائكة ، إذ علمه ربه الأسماء كلها . يقول محمد إقبال : « لقد قدر على الإنسان أن يشارك فى أعمق رغبات العالم الذى يحيط به وأن يكيف مصير نفسه ومصير العالم كذلك تارة بتهيئة نفسه لقوى الكون . وتارة أخرى ببذل ما فى وسعه لتسخير هذه القوى لأغراضه ومراميه ، وفى هذا المنهج التقدمى يكون الله فى عون المرء »(١) .

والظلال ـ التى يلقيها الإنسان من نفسه على الكائنات الأخرى حتى تتجلى فى عدسات تصوره الفنى وخياله الإنشائى كما يقول « هيجل » ـ عبر عنها الصوفى الإسلامى فى روعة سامقة تليق بمكانة الإنسان الممتاز بقوله : « العارف يخلق بهمته الأشياء كالصور الخيالية فى مخيلة المتصورين »(٢) . وعبرت عنها الفلسفة الإسلامية فى كلمة ابن رشد « إن الإنسان هو وحده بين المخلوقات القادر على أن يحول الصور الكونية إلى معان ومدارك عقلية هى مرآة هذا الوجود » ، وهذه القدرة التخيلية ، القدرة المبدعة الخالقة التى من بها الله سبحانه على الإنسان هى سره الأكبر ، وبها وحدها ، أصبحت

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ، لمحمد إقبال ص ١٩

(٢) محيى الدين بن عربى فى الفتوحات ج ١

للصور الكونية معانى ترجم عنها الإنسان وأبرزها ، فأصبح وحده الحلقة المفسرة للكون ، أو اللوحة التى يتجلى فيها الكون ، فتتجلى فيها آية الله الكبرى . يقول فريد الدين العطار : « الإنسان خلاصة العالم ، أو هو العالم الأصغر الذى انطوى فيه العالم الأكبر ، أو هو روح العالم الشاعر بنفسه وبالله ومن أجله خلق كل شىء (١) » . ويقول — الجامى — : « الإنسان تاج الخليقة وآخر أسبابها وهو وإن يكن آخر فى ترتيب الخليقة فهو أول فى مجرى الفكر الربانى لأن الجانب الأساسى فيه هو الروح الذى فاض عن الألوهية مباشرة » ، ويقول ابن عربى « هو العالم الأصغر الذى انعكست فى مرآة وجوده كل كمالات العالم الأكبر » ، ويقول جلال الدين الرومى : « إن الإنسان هو عين الكون المبصرة » : ويقول الشيخ الأكبر محيى الدين ابن عربى : « الإنسان سر الله مبينا فى خلقه » ، ويقول فريد الدين العطار مخاطباً الإنسان : « . . . أنت اللب والعالم القشر كل ذرات العالم مسخرة لك » ، ويقول حجة الإسلام الغزالى : « إن للقلب بابين ، أحدهما مفتوح نحو عالم الحس والمشاهدة ، والثانى مفتوح نحو عالم الملكوت » .

فللصوفية فى هذا الجانب الروحى جولات تذاق بالوجدان ، وتلمس بالروح والشعور ولا يعبر عنها بالبيان أو اللسان .

وقد عبر الشاعر الصوفى عن ذلك تعبيرا رائعا فقال :

وتزعم أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذى   بأحرفه يظهر المضمر

والصوفيون يؤمنون بأن الوجود الإنسانى هو سر هذا الوجود الكونى وأن حياة الإنسان حياة متطورة بذاتها نحو الكمال ، وهى فوق ذلك مؤثرة فى كمال الوجود الشامل ، يقول الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى « إن الله

(١) التصوف وفريد الدين العطار لعبد الوهاب عزام .

تعالى لما أوجد العالم كان شبحا لا روح فيه فاقتضى الأمر جلاء مرآة العالم ، فكان آدم عين جلاء تلك المرآة ، وروح تلك الصورة وهو الحافظ للعالم والمبقى على نظامه (١) » .

وثالث سمة للنثر الصوفى هو بلاغته وروعته وجلاله وسحره وشدة تأثيره على النفوس ، لما اشتمل عليه من حكمة وصدق وحب وعشق وجمال وحق ، ولما أودع فيه من نور ، والتف به من أكسية القبول .

ورابع سمة هى وضوح أساليبه وجمال ألفاظه وسهولة تراكيبه إلا عند المتأخرين أو من تفلسف من الصوفية ، كابن عربى وابن الفارض مثلا ، فقد صار الأدب الصوفى عندهم أدبا رمزيا فى الغالب ، وألفاظا اصطلاحية فى الأكثر ، وغرابة فى كثير الأحايين ، بل تعقيدا مابعده من تعقيد .

وخامس سمة هو ماكان للصوفيين من إطناب فى الغالب وبخاصة عند المشهورين منهم بالترسل كالغزالى ، أما من اشتهر منهم بالحكمة كابن عطاء الله فقد انقلب النثر عندهم إلى جمل قصيرة تحتوى على كثير من المعانى الدقيقة ، وآثروا هذا الإيجاز البليغ ، ليحفظ كلامهم ويروى من بعدهم على ألسنة المتأدبين والدارسين ، وكتاب الحكم لابن عطاء الله السكندرى (٧٠٩ هـ) مشهور .

ويمتاز أدب الصوفيين كذلك بروائع مااشتمل عليه من التمثيل والتشبيه والخيال والتصوير ، يقول ذو النون المصرى (٢٤٥ هـ) : « لايسقى المحب كأس المحبة إلا من بعد أن ينضج الخوف قلبه » ، ويقول الشبلى فى المحبة : « كأس لها وهج إذا استقر فى الحواس وسكن فى النفوس تلاشت » ، ويقول الروزبارى (٣٦٩ هـ) : الخوف والرجاء كجناحى الطائر إذا استويا استوى

---

(١) فصوص الحكم : الفص الآدمى : لمحى الدين بن عربى .

الطير وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر فى حد الموت ، ويقول يحيى بن معاذ (٢٥٨ هـ) : الجوع نور ، والشبع نار ، والشهوة مثل الحطب يتولد منه الاحتراق ، ولا تطفأ ناره حتى يحرق صاحبه (١) .

ويكثر الاقتباس فى كلام الصوفية من القرآن والسنة النبوية ، حتى لتوصل الآية بالآية والحديث بالحديث كما فى افتتاح حزب البر لأبى الحسن الشاذلى (٦٥٦ هـ) ، قال فيما قال بعد الاستعاذة والبسملة : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . الر . كهيعص ، حمعسق ، رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون . طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلا الرحمن على العرش استوى له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » (٢) .

أما موقفهم من السجع فكان متفاوتا ، فمنهم من تركه ، ومنهم من آثره ، ومن هؤلاء من تكلفه ، ومنهم من أتى به مطبوعا جميلا رشيقا ، وانظر إلى كلام ابن عطاء الله (٧٠٩ هـ) ، يقول :

---

(١) راجع ص ٧٠ الأدب الصوفى ـ الأستاذ العقدة .
(٢) مجموع الأوراد ص ٦٥ و ص ٦٦

« الناس (١) يمدحونك بما يظنون فيك ، فكن أنت ذاما لنفسك ، لماتعلم منها ، فإن أجهل الناس من ترك يقين ماعنده ، لظن ما عند الناس ، غيب نظر الخلق إليك ، بنظر الله إليك ، وغيب عن إقبالهم عليك ، بشهود إقباله عليك ، علم أن العباد يتشوقون إلى ظهور سر العناية فقال تعالى : « يختص برحمته من يشاء » ، وعلم أنه لو أخلاهم من ذلك لتركوا العمل اعتمادا على الأزل فقال تعالى : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » ، إن أردت ورود المواهب عليك فصحح الفقر والفاقة لديك ، « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » ، أنوار إذن لها فى الدخول وأنوار أذن لها فى الوصول ، ربما وردت عليك الأنوار ، فوجدت القلب محشوا بصور الآثار ، فارتحلت من حيث نزلت ، فرغ قلبك من الأغيار ، تملؤه بالمعارف والأسرار ، والمؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكرا ، وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرا . جعلك الله فى العالم الأوسط بين ملكه وملكوته ، ليعلمك جلالة قدرك من مخلوقاته ، وأنك جوهرة انطوت عليها أصداف مكنوناته » .

« أنت (١) مع الأكوان مالم تشهد المكون ، فإذا شهدته كانت الأكوان معك ، العاقل بما هو أبقى أفرح منه بما هو يفنى ، قد أشرق نوره ، وظهرت تباشيره ، فصد عن هذه الدار موليا ، وأعرض عنها مغضبا ، فلم يتخذها موطنا ، ولا جعلها سكنا ، بل أنهض الهمة فيها إلى الله تعالى ، وسار إليه مستعينا به فى القدوم عليه ، فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها ، دائما تسيارها ، إلى أن أناخت بحضرة القدس ، وبساط الأنس ، محل المفاتحة والمواجهة ، والمجالسة والمحادثة ، والمشاهدة والملاطفة ، وصارت الحضرة معشش قلوبهم إليها يأوون ، وفيها يستوطنون ، فإن نزلوا إلى سماء الحقوق ، وأرض الحظوظ ، فبالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين ، فلم ينزلوا إلى الحقوق

---

(١) ص ٤١ تاج العروس ـ المطبعة العثمانية المصرية

بسوء الأدب والغفلة ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة ، بل دخلوا فى ذلك كله بالله ولله ومن الله وإلى الله » .

وهنا نجد أسلوب هذا الصوفى متفاوتا ، تارة مسجوعا وتارة غير مسجوع ، وذلك فى موضع واحد وكلام واحد ؛ فما بالك بكلام الصوفيين ، وهم متفاوتون فى الزمان والمكان ، وفى البلاغـة والفصاحة ، وفى الميول والأذواق .

والصوفية قبل كل شىء فى جانب المعنى لا اللفظ ، فأدبهم ملىء بالمعانى الثرة وليس أدب ألفاظ وجمل جوفاء . إنه أدب فكرة ودعوة وعقيدة وروح ، وليس أدب ترف وجمال ولا أدب بيان لفظى أو خيال ، أدب الحقيقة المصفاة النابعة من القلب (١) ، فهم ذوو ثقافة واسعة وهيام شديد بالثقافة الأدبية ، ولهم آراء معروفة فى المذاهب الأدبية (٢) .

وقد عاشوا فى القرن الثانى الهجرى والنفوذ قوى للقصاصين ، فقاوموهم (٣) ، وأزروا بهم لأن القصاصين كانوا يعتمدون على حسن البيان ، ومذهبهم أشبه بالسوفسطائيين فى استثارة الشباب والتأثير عليهم ، وكان الصوفيون لا يرون الأدب إلا معانى وأفكارا وآراء .

وهكذا كان الصوفيون من قادة الفكر والبيان (٤) ، فى القرن الأول والثانى ، وقد كان للقصاص منزلة أدبية رفيعة ، حيث كانوا يحتفلون ببلاغة اللفظ وبالجمال البيانى وبشتى صور الخيال والتشبيه والمجاز احتفالا شديدا ، ولما كان الصوفية منصرفين عن هذا الجانب ، فقد آثروا أن يخففوا من

---

(١) ٧١ زكى مبارك — التصوف الإسلامى .
(٢) ٨٤ المرجع .
(٣) ١ : ٨٤ التصوف الإسلامى .
(٤) ١ : ٨٨ التصوف الإسلامى لزكى مبارك .

غلواء القصاص وبيانهم اللفظى ، فهاجموهم ، و « قاوموا القصاص »[١] ، كما يقول زكى مبارك[١] ، ولعل ذلك ليحولوا دون شدة تأثير سحرهم اللفظى على أذهان الشباب الإسلامى .

وهو فى جملته أدب خلا من الزخرف ، ولم يعن بالألفاظ ، وحفل بدقائق المعانى ، والمعانى هى كل البلاغة عند أرباب الذوق والروح .

ويعد الأدب الصوفى أدب قوم خبروا الحياة[٢] وأهلها ، ثم ملوا المجتمع وحياة الترف ، وركنوا إلى الخشونة والزهد فى الحياة .

وفى آثار الأدب الصوفى نصوص كثيرة من القصص والوصف والحكم وجوامع الكلم ، انظر إلى قول ابن عطاء الله فى حكمه : « ادفن وجودك فى أرض الخمول ، ، فما نبت مما لم يدفن لايتم نتاجه » .

وفى شرح الرندى وابن عجيبة : « كلما دفنت نفسك أرضا أرضا ، سما قلبك سماء سماء » ، وابن عطاء الله يتأثر فى استغاثاته خطوات أبى الحسن الشاذلى فى حزب البر ، حيث يعلل المعـــانى ويحللها ، ويشرح وينقد ويستنبط .

وقد أثرى الأدب الصوفى الأدب العربى بما أدخله فيه من فن الترجمة الذاتية التى يعد بحق أروع مثال لهـا كتاب « المنقذ من الضلال » للإمام الغزالى ، وكتاب « لطائف المنن » للشعرانى ، وقد ترجما فيهما لحياتهما الروحية ترجمة رائعة .

---

(١) ١ : ٨٤ المرجع نفسه .
(٢) ومنه حكم ابن عطاء الله السكندرى ، وكانت تدرس فى الأزهر الشريف وقد شرحها الرندى وابن عجيبة .

ويقول زكى مبارك فى كتابه « التصوف الإسلامى » : إن الأدب كل الأدب هو ما أثر عن الصوفية ، وإن تجاهله أهل العلم فى مصر وغير مصر ، حيث لا تجد له أثرا فى البرامج التعليمية ، ولا تجد منه شاهدا فيما يتخيره أساتذة المدارس فى مختلف الأقطار العربية للحفظ والتسميع (١) .

ويقول أيضا :

إى والله كان للصوفية أدب هو أعلى وأشرف من أدب البحترى والمتنبى وأبى العلاء ، ولكن طافت بالناس طائفة من الجهل ، فتوهموا أن لا صلة بين الأدب والدين ، وراحوا يقفون فيما يتخيرون عند الكتاب والشعراء الذين ألفوا الروح المدنية ، واتخذوا غذاءهم من الكؤوس المترعة (٢) .

انتهى الجزء الأول

ويليه الجزء الثانى بعون الله تعالى

(١) ١ : ٣٦ التصوف الإسلامى .
(٢) ١ : ٢٦ و ٣٧ المرجع نفسه .

(فهرست)

الصفحة	الموضوع
٧	تمهيد : التصوف فى عصر العلم
٢٩	القسم الأول من الكتاب
٣٠	الباب الأول
٣١	الفصل الأول : ماهية التصوف
٣١	ما التصوف
٣٣	الفرق بين الصوفى والزاهد
٣٤	الفرق بين التصوف والفقه
٣٥	الفرق بين التصوف والفلسفة
٣٨	متى نشأت كلمتى تصوف وصوفى
٤١	قواعد التصوف
٤٣	آداب التصوف
٤٥	آداب التصوف
٤٥	مراتب التصوف
٤٦	أقسام التصوف الإسلامى
٤٨	علم التصوف
٤٩	اشتقاق كلمتى تصوف وصوفى
	الآراء فى ذلك :
٥٠	الرأى الأول

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحه	الموضوع